مكتبة المدني الإلكترونية
Almdni.Com

تم تحميل هذا الملف من

مكتبة المدني الإلكترونية الشاملة

آلاف الكتب والدروس والأمثلة والمحاضرات المقروءة والمسموعة والمرئية

كتاب اليوم

حكايات قهوة كتكوت

محمود السعدنى

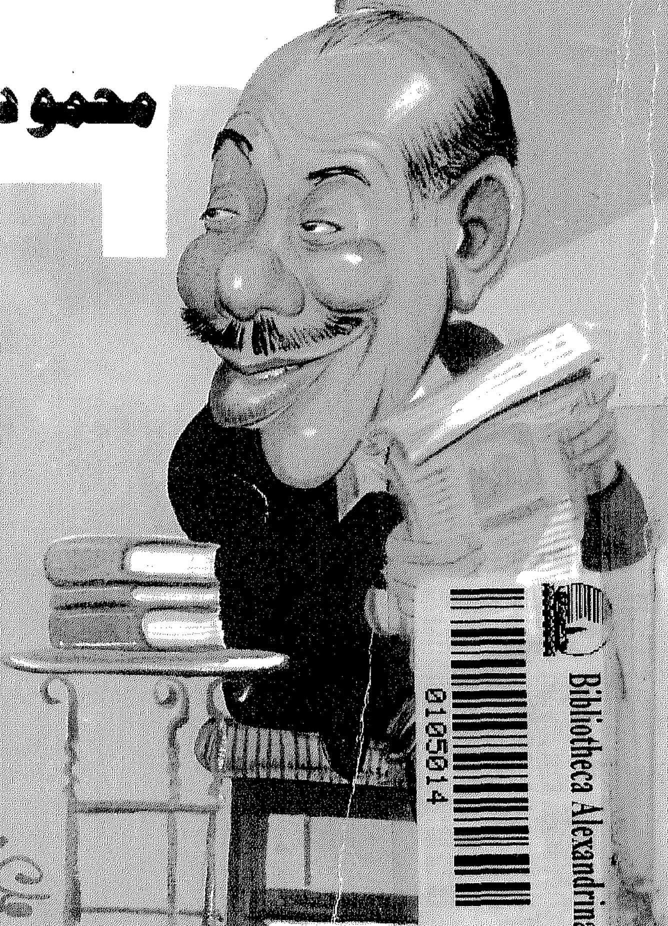

Bibliotheca Alexandrina
0105014

دار
أخبار اليوم
قطاع الثقافة

كتاب اليوم

يصدر
أول كل شهر

عدد يناير ١٩٩٩

رئيس مجلس الإدارة :
إبراهيم سعده
رئيس التحرير :
نبيل أباظة

أسعار كتاب اليوم فى الخارج

الجماهيرية العظمى	٢	دينار
المغرب	٢٠	درهما
لبنان	٤٥٠٠	ليرة
الأردن	٢٠٠٠	فلس
العراق	٧٠٠٠	فلس
الكويت	١,٥	دينار
السعودية	١٢	ريالاً
السودان	٣٢٠٠	قرش
تونس	٢	دينار
الجزائر	١٧٥٠	سنتا
سوريا	١٢٥	ل. س
الحبشة	٦٠٠	سنت
البحرين	١,٢٥٠	دينار
سلطنة عمان	١,٢٥٠	ريال
غزة	٢,٥٠	دولار
ج. اليمنية	١٥٠	ريالا
الصومال، نيجيريا	٨٠	بنى
السنغال	٦٠	فرنكا
الإمارات	١٢	درهما
قطر	١٢	ريالا
انجلترا	٢	جك
فرنسا	١٠	فرنكات
المانيا	١٠	ماركات
إيطاليا	٢٠٠٠	ليرة
هولندا	٥	فلورين
باكستان	٣٥	ليرة
سويسرا	٤	فرنكات
اليونان	١٠٠	دراخمة
النمسا	٤٠	شلنا
الدنمارك	١٥	كرون
السويد	١٥	كرون
الهند	٣٥٠	روبية
كندا - امريكا	٣٠٠	سنت
البرازيل	٤٠٠	كروزيرو
نيويورك - واشنطن	٣٥٠	سنتا
لوس انجلوس	٤٠٠	سنت
استراليا	٤٠٠	سنت

• الاشتراكات •

جمهورية مصر العربية

قيمة الاشتراك السنوى ٦٠ جنيها مصريا

• البريد الجوى •

دول اتحاد البريد العربى ٢٩ دولارا

اتحاد البريد الافريقى ٣٤ دولارا

أوربا وأمريكا ٣٩ دولارا

أمريكا الجنوبية واليابان واستراليا ٤٩ دولارا أمريكيا أو ما يعادلها

• ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهو

• ترسل القيمة إلى الاشتراكا ٣ (أ) ش الصحافة

القاهرة ت : ٥٧٨٢٧٠٠ (٥ خطوط)

• فاكس : ٥٧٨٢٥٤٠

• تلكس دولى : ٢٠٣٢١ ٠

• تلكس محلى : ٢٨٢

• قطاع الثقافة ٦ ش الصحافة

• تليفون وفاكس : ٥٧٩٠٩٣٠

حكايات

قهوة كتكوت

محمود السعدني

مقدمة

كتابة على الأرض

محمد مستجاب

أربعة ظللت أخشاهم دهورا : سيدنا محمد عثمان شيخ الكُتّاب ، خالى أحمد خميس ناظر مدرسة النصارى ، عفريت كان يداهمنى بين ليلة وأخرى أثناء تسللى إلى غيط طماطم الجيران ليلا ، وامرأة كانت تفتح عينها وترفع حاجبها تحديا وهى تخطو فوق العتبة لتدخل إلى واحد من أثرياء بلدتنا دون اهتمام بمشاعرنا ، وخامسهم السعدنى - محمود - هذا الذى جذب القصة من بين آهات يوسف السباعى ونوافذ حارة نجيب محفوظ وإنسانية محمود البدوى وحزن يوسف إدريس المرير ، جذبها من شعرها - هذه القصة المكتوبة فى الورق المسطور ، وألقى بها على أرضية الشارع المكفهر ، لتتلوى صارخة ضاحكة تتلاطم مع محلات الكفتة ولحمة الراس والمعبار

ولفائف البطولة الصارخة الواهنة ، وسحب اللغة الرصينة الدافئة المنظمة من بين جدران أساليب المنفلوطى وأمين الخولى وطه حسين ، وخلع عنها أرديتها لتجرى عارية واقعية فى شوارع الجيزة والأحراش المبكرة لشارع الهرم ، وجعلها - إن أراد أن تبدو لامعة - تجلس بعض الوقت تداعب بأقدامها الحافية تيارات ناعمة من مياه البحر الأعظم ، ثم يسامر اللغة - آخر الليل - على قهوة كتكوت ، لتفرز أنواعا من السلوك الواقعى الحقيقى لشعب ظل الكثير من المعبرين عنه يؤلفون له ما لا يعرفه - هذا الشعب - أبدا .

كنت ريفيًا أتلهف على قراءة ما أستطيع الوصول إليه من أوراق ، حينما عاد محمود السعدنى من الجزائر لينشر تحقيقاته المتفردة عن ثورتها ، ظل أيامها يثابر (يهابر أفضل) كى يجد طريقا للخروج عما هو معهود من السياق اللغوى والمعانى الجميلة ، وخلال ذلك ، أو قبل ذلك ، قرأت له أقاصيص فى مجلة التحرير أو الرسالة الجديدة - فيما أعتقد ، وكان من بينها - والاعتماد هنا على الذاكرة الصبيانية الرائقة - قصة (جنة رضوان) التى حملت فيما بعد عنوان مجموعة كاملة ، لكن الأخطر من كل ذلك أنه - بعد ذلك بسنوات - كتب روايته الحلوة الشائكة الواخزة : حتى يعود القمر ، بالطبع كانت الرواية على غير النسق والمعانى المعهودة السائرة والسارية أيامها ، فقد فتح السعدنى بطن الواقع الذى كانت اللافتات والشعارات والمكتوبات من قصص ومقالات وروايات قد جهلته (لم أقل تجاهلته) ، كانت حروب الفدائيين ضد الانجليز فى معسكرات القنال قد استولت - بطبيعة الأمر - على عواطفنا فور إلغاء

المعـاهدة الشهـيرة بالصداقـة ، وهو ما أثبت قـدرة هذا الشعب المـصرى (أيامـها) على الصـلابة والقـدرة والتحـمل ، ووقع شهداء من كافة الفصـائل مدنيين وشرطة ، مما أدى إلى ثورات عارمـة فى الشـوارع - فى كافـة البلاد - تندد بالنظام الخـائن والملك الخائن ، حـتى وصل الأمرإلى حـرائق القاهرة الشهـيرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ ، وخـلال اضطرابات سيـاسيـة وتغيـيرات وزارية واعتقـالات ثورية ، قام عبد الناصر بانقلابه المـعبر عن هذه الثورة (وأنا أميل إلى الإنصات إلى اسـتنتاج يشير إلى أن عبـد الناصر قطع الطريق على ثورة شيـوعية) ، وكل مـا كتب من موضوعات أو تنظيرات لم تومىء أبدا أو تكتشف أو تغوص فى أتون النـار الذى اشـتـعل فـى قناة السـويس أثـناء حـرب الفـدائيين ، فـالحس الشـعبـى بالذات ظل خاضـعـا للشعـارات والعاطفة الوطنيـة أكثر من الإمعان فى فلسفـة السلوك الشعبى فى أرض الموقعـة ذاتها ، وكان مدهشا لدرجـة تثير اضطرابى الصـبيانى أن أجـد فى رواية السـعدنى - حتـى يعود القـمر - آدميـين يجعـجعون صـارخين بالشجـاعة مقـابل هؤلاء الأبطال الذين استشهدوا بالفعل ، إنهم أناس من الواقع الفعلى الذى يقع فى شباك الـسلوك العفوى التلقائى من حـداقة (وصـف للرجل الحدق الذى يبـدو فاهما) وحركـات فتونة وتراقص واستـذكاء خلال عمليات تهريب السلاح للفـدائيين أو إيوائهم ، كانت طبيعة الناس تتفسخ فى الرواية كاشـفة عن أمور لا نحب نحن الكتاب أن نتورط فـيهـا عادة ، وهى ثورة تعـبيـر لم يدركهـا أحد من النقـاد حـتى الآن ، أدركـتـها وحـدى وكـانت من بين أسـبـاب اقتحامى الشـخصى لهذه المعانى والمثل التى يـصمم كتابنا أن

يحافظوا عليها معتقدين أنها تصنع المجد الشعبى العظيم .

ولم يغب السـعدنى عن بالى أبدا ، كنت قـد كبـرت وظللت - فى تلك السنوات المـريرة الطويلة - أبحث عن عمـل دون إهمال فى الوقوع داخل حفر الغرام الملتهب بين مرارة وأخرى ، لكنى ظللت مع السـعـدنى فى مـواقعـه المـبكرة مع لويس عـوض ، ومأمون الشناوى ، وشاركتـه أسى اصطدامه بيوسف السباعى أيام علاج طفلتـه الغالية (هالة) ، وما صـاحب ذلك من مرارة الواقع المـصرى ، وظللت أتـقلب بين ربا وتلال ووهاد ووديان وجزر وخرابات وحـدائق وسجون ومطاعم ومجـالس تحشيش وشرب بوظة ومتاجرة فى شـعارات ، العالم عنده يتسع ويتسع حتى يملأ حارة بالجوعى ، ثم يضـيق ويضيق حتى يختنق بين قارة افريقيا ، الواقع هو سيـد الموقف ، والحس الشعبى الغامر هو رقصـة الزار الصاخـبة التى بسـببهـا سجن واعـتقل - هذا الكاتب الجميل المتفرد - فى كافـة العصور ، ولاذ بعثمان أحمد عثمـان فى المقاولون العرب ، ثم هرب إلى لندن (وبـالمناسبة كان يصـدر مجلة ٢٣ يوليو أو يكـتب فيهـا خلال تلك السنوات التى تكاره فـيهـا مع السادات) ، ثم إلى الخليـج ، حياة تـبدو مـترفـة بالمرارة والغـربة والحـزن الذى يكوى سراديب العـقل والفؤاد ، حيث ينتهى الأمر - كل الأمر - فى طاسة تعبق برائحة الكبدة المحمرة بالبقدونس ، وقد حـاصرتها جدران المعتقلات : الحوائط والكلمات .

وظلت خطوطى مـع السـعدنـى تتـوازى (الخطوط وليـست الحياة ذاتها) ، اشتغـلت فى السد العالى (وبالمناسبة كنت فى شركة عثمـان) وعدت إلى القاهرة لأتزوج وأظل سنوات طويلة

فى مجمع اللغة العربية ، وأقرأ السعدنى ، وأشارك فى مهاجمة السعدنى وافتح بطنه وأقلب تجاربه وازداد به حبا ، وانتقادا ، وسخرية .

●●●

منذ شهور - قد تتجاوز العام - جاءنى صوته الشارخ فى التليفون : واد يا مستجاب .. عاوز أشوفك .

وتوجهت إليه ...

١ ريعـــــو

من هنا وإلى ما شاء الله سنـحكى للقراء قصة بزوغ وسقـوط قهوة كتكوت وقـهوة كتـكوت وإن كان لها شكل القـهاوى المنتـشرة فى كل ركن فى ربوع مصر ، إلا أنها كانت بحق نموذجا مصغرا لمصر كلها ، وهى دون القهاوى كلها كانت تغير جلدها عدة مرات فى اليوم الواحد ، فى الصباح الباكر كان يتردد عليها بعض كـتبة المحامين ، وجمع كثير من الفلاحـين الذين ينتظرون النظر فى قضـاياهم أمام المـحكمة وفى الظهـيرة كـان يجلس عليهـا بعض الطلبـة المزوغـين من مدارسـهم ، وبعض عـمال اسـتديو مـزراحى ، وهو يهـودى إيطالى عمل مـخرجـا بالسينمـا المصرية ، وأحيانا كـان يتجمهـر أمام القهوة بعض الصـبية والشـباب للفـرجة على بعض الـكومبـارس الذين كانوا يتـرددون على القهوة حتى يحين دورهم فى الوقوف أمام الكاميرا وكان فقراء الجيزة ينظرون إلى هؤلاء الكومـبـارس نظرتهم إلى النجـوم ، وكـان تلاميـذ مدرسة ميلاد يصحبون معهم مصورين يحملون آلات عتيقة لها ستائر سوداء بالإضـافة إلى جردل مملوء مـاء لزوم التحميض . وفى سـاعة المغربية كان يقصد القهوة جماعة من الموظفين ـ صغارا وكبارا .. من العاملين فى دوائر الحكومة من درجة رئيس قلم ومدير إدارة .

وكان هؤلاء حريصين كل الحرص على ارتداء ملابسهم كاملة ، مع

الاكسسوار اللازم من منشات وعصى بعضها كريز وبعضها ابنوس وفى تلك الفترة التى تمتد من المغرب وحتى الحادية عشرة مساء ، كان الهدوء يخيم على القهوة ، فلا صوت يعلو أكثر من اللازم ، ولا درجة حرارة المناقشات ترتفع أكثر من الضرورى وعندما يغادر الموظفون قهوة كتكوت ، تشهد القهوة نوعا آخر من الرواد ، مجموعة من الأدباء والصحفيين ، وهؤلاء تسبقهم جلبة وضوضاء ، والسبب أن مجموعة من طلبة الجامعة كانوا يأتون مبكرين قبل حضور الأساتذة ، وكان هؤلاء يبدأون المناقشة قبل بدء الجلسة ، يصيحون ويصرخون ويسبون بعضهم بعضا ، وعندما يحضر الأساتذة كان الهدوء يعود إلى القهوة ، ولكنه هدوء يختلف عن هدوء الموظفين وكانت جلسة الأدباء تنتهى عند الفجر ، ومع أن السهر كان ممنوعا بعد منتصف الليل ، إلا أن عساكر الداورية كانوا يشعرون بحاستهم السادسة أن هذه النوعية من الزبائن تختلف عن الزبائن الآخرين ، وربما كانوا يعتبرونهم جزءا من الحكومة خصوصا وأن جلستهم كان يتردد عليها بعض « اللواءات » فى ملابسهم الرسمية وكان المعلم كتكوت نفسه يبقى أيضا فى مكانه لا يتحرك وقد بدت عليه علامات الزهو لوجود هؤلاء السادة ضيوفا على القهوة وبالتأكيد فإن زهوه لم يكن سببه معرفته بأن هؤلاء الزبائن من الأدباء ، ولكن لأنه كان يؤمن بأنهم من رجال المباحث وبعد انصراف الأدباء وتلاميذهم من الطلبة كان العمال ينهمكون فى تنظيف القهوة وغسيل الصوانى والملاعق والأكواب ، ومع ذلك كانت لا تخلو من زبائن آخرين ، أبرزهم زنوبة وهى امرأة كانت لها شنة ورنة ، وكانت أثيرة عند كبار تجار الماشية والحبوب ، ثم تدحرجت بها الأحوال عندما تقدمت فى السن ، فأصبحت أثيرة لدى طلبة الجامعة الريفيين الذين جاءوا لتحصيل العلم فى القاهرة ثم تدحرجت أكثر حتى أصبحت مرغوبة عند طبقة الشيالين والعتالين

والتـباعـين ، وكـانت تمـارس الحب فى سـيارات النقل أحـيـانا وعلى الرصيف فى أغلب الأحـيان وكان من عادتهـا أن تسرح طول الليل فى شارع الترمـاى وفى الشوارع المتفـرقة من الميدان ، فـإذا ظهر ضوء الصباح لـجأت إلى قهوة كتكوت فـتشرب الشاى بالمـيزة ، وتدخل فى خناقة حـامية مـع الواد ريعو ، ثم تضطر إلى مغـادرة القهـوة بعد أن يلعن لها المعلـم كتكوت « أباها » ، ولكن زوبة لم تكن من الناس الذين يرعبهم الصيـاح ، ثم أنها كانت تعرف المعلم كتـكوت جيدا وتعرف أنه رغم منظره المخيف إلا أنه كان من النوع الذى يحاول بالصوت إرهاب خصمه ، فإذا لم يخف الخصم وأظهر ميلا إلى العراك تحول المعلم إلى عجينة لينة وهشة وظهر على حقيقته مجرد جعجاع لا غير ولذلك كانت أغلب خناقـات زوبة والمـعلم كتكـوت تنتهى بطلـب واحد شـاى للست زوبة على حسـاب المعلم ، الذى كان يتنازل ويـجلس مع زوبة يذكرها بالأيام التى ولت والزمن الذى كان وفى أثناء جلسة الصلح كان المعلم كتكوت يحكى كذبا عـن علاقته الطيبة مع زوبـة التى لم يكن لها وجود فى أى يوم من الأيام فقـد كانت العلاقة بينهـما متوترة ، وكـان المعلم فى أعمـاقه يحـقد عليـها إلى حد بعـيد فـفى أيام عز زوبة ، حـين كان يتخطفهـا التجار الأثرياء وأصحاب الوكالات وتجـار الجملة فى ساحل الغلال كان المعلم كتكوت فى أيام شبابه ذا شارب مفتول وصحة مش بطالة ، ولكنه كان مـجرد قهـوجى ، ولهذا السبب لم يتـمكن من دخول دائرة عشاق زوبة ولمـا كان المعلم كتكوت يرى نفـسه أحق بزوبة من الآخرين ، فقد بادلها احتقارا باحتـقار ، وكان يتجاهلها عن عمد ، حتى فوجىء ذات صباح بدخولها القهوة تطلب كوب ماء مثلج ودعاها المعلم إلى زجاجـة قازوزة سـباتس ، ودعـاها إلى الجلوس ولما كـان الوقت مبكرا فقد مازحها المعلم ومازحته ، وامتدح حسنها وجمالها ، وشكرته زوبة ، وتمادى المـعلم وطلب لها شـيشة ، وانهـمك فى توليعهـا حتى

أصبحت تمام التمام ، ثم مد يده بالشـيشة فلما مدت يدها ، تجاهل اليد الممدودة ووضع الشيشة بين شفتيها ثم نزل بيده على صدرها البارز فى حركـة تبدو للغشـيم أنه لا يقصدها ولـكن زوبة الأروبة دفعت يده بعـيدا وهى تلعنه وتـلعن أباه ، وخاف المـعلم كـتكوت من الفضـيحـة فاقسم برأس المعلم كتكوت الكبير أنه لم يقصد شيئا على الإطلاق وأن يده اصطدمت بصـدرها البـارز دون إرادته ومن يومها وحـسك عينك لا يرتكب المعلم كتكوت أى خطأ مع زوبة .

وإذا كانت هذه السطور لـمحات عاجـلة عن قهوة كـتكوت ، إلا أنها كانت ضـرورية قبل أن ندخل فى صلب الموضوع ، لكى يعـرف القراء أن قهوة كتـكوت وإن كان لها شكل القهاوى إلا أنها تخـتلف عن جميع القهـاوى ، فزبائنها ليـسوا من نوع واحد أو لون واحـد ، وتأريخنا لها يبدأ فى العام الذى سبق قيام الحرب العـالمية الثانية وإذا كانت الحرب العالميـة قد نشبت فى أوروبا ، فقد أثرت بشدة على قـهوة كتكوت فى الجيـزة وعلى العامـلين فيـها وعلى زبائنهـا المتـرددين عليهـا ، وكان تأثيـرها الأكبر عـلى صبى القـهوة (ريعو) وهـو رجل فى الخامـسة والثلاثيـن من عمره فى هيـئة ولد فى الخـامسـة عشرة كـان ضئـيلا ونحيلا ومـصـابا بالهزال بسبب البلهـارسيا وسوء التغـذية وكان بينه وبين المعلم كتكوت ما صنع الحداد وبالرغم من ذلك لم يفكر ريعو فى الاستقالة ، وأيضـا لم يفكر المـعلم كتكوت فى طرده ولعل حاجة المعلم كتكوت لريعـو كانت أكبـر من حاجة ريعـو للمعلم كـتكوت إذ كان من عادة المعلم إذا تعكر دمه أو انحرف مزاجه أن يفش غله فى الولد ريعو كان أحيانا يصـرخ فى وجه ريعو حتى تنتفخ عروقـه ويتصبب العرق من جبهته ثم يهوى عليه بالركلات حتى يهدأ ويصفو ويعود إلى حالته الطبيعـية، وعندما قامت الحرب العـالمية لم يشعر الـمعلم كتكوت بأى تغيـير فـالميـدان كما هـو وزبائن القهوة هـم هم والحياة تمضى فى

الحـــرب كما كـانت تمضـــى قبلهـا، صحيـح أن صفارات الإنذار تـعوى أحيـانا ولكن المعلم كـتكوت تعلم بالتجربـة أنها صفـافير كـدابة ، فلا قنابل سقطت ولا شهداء سقطوا ولا جرحى نقلوا لـلمستشفيات ولذلك أعطى المـعلم كتكوت ظـهره للحـرب وتفرغ للقـهـوة وللزبائن وللولد ريعو .

أما ريعو فـقد غيرته الحرب كثـيرا فبين الحين والآخـر كان المعلم كتكوت يضبط مع ريعو بطانية جديدة أو خرطوشة سجاير أجنبية ولم يهـتم المعلم كـتكوت كثـيرا بهـذه الظاهرة ، فـهو يعلم أن الولد ريعـو عفريت ، وربـما وصلت إليه عن طريق عسكرى إنجليـزى ، ولكن حدث بعد ذلك أن المـعلم كتكوت فكر ذات يوم فى إجراء بعض الاصـلاحات فى القهـوة ، فاستـدعى أحد المـهندسين وطاف به داخل القـهوة وبدأ المـعلم رحلته إلى دورة مـياه قـديمة كـان قـد أغلقهـا لكثرة أعطالهـا وجسامة تكاليف إصلاحـها فكاد يجن عندما وقع بصره داخل الزنزانة على مـخزن عـامر بكل أنـواع متـعلقات الجيش البـريطانى ، بطاطين أشكال وألوان وخراطـيش سجاير أصناف ومـاركات ، وانهـال المعلم بالضرب على ريعو حتى كاد يقتله واعتذر ريعو للمعلم لأنه لم يستأذن قبل استخدام دورة المياه المهجورة كمخزن ، وأقسم المعلم كتكوت أنه سيقـتله إذا لم يكشف له عن الحقيـقة واعترف ريعو بـأن كل الموجود فى القهوة يـعود لحسين الجنايني أحـد رجال الفتوة عبـده الإنجليزى ولما كان المعلم يعـمل ألف حساب للفتوة عبـده الإنجليزى فقد غطرش على المســألة ، مع لفت نظر ريعو إلى عـدم العودة إلى هذا العـمل مرة أخرى ولكن بعـد مضى فـترة قصـيرة اكـتشف المعلـم أن الولد ريعو كذاب وأن البضــاعة كانت تخصـه ولا تخص أحدا آخر فأقـسم المعلم على الانتقام وتلقين ريعو درسا لا ينساه ليس هذا فقط ولكنه استطاع أن يقنع ريعـو أنه نسى الـمســألة تمـامـا ، وأنه أهمل عـملية إجـراء

إصلاحات فى القهوة ويبدو أن ريعو انخـدع بالفعل فعاد إلى استخدام دورة المياه المـهجورة كمخزن ولم تكد تمـضى أيام حتى هبط ضابط المبـاحث على القهوة واتجـه مباشـرة إلى المخزن وألـقى القبض على ريعـو الذى اختـفى فى السجـن لمدة عـام وعندما عـاد كان قـد ازداد شحـوبا ، ومع ذلك لم يتـردد المعلم كـتكوت فى إعادته إلى عـمله فى نفس اللحظة وريعـو أيضـا أعلن قبـوله للعـمل فى قـهوة كـتكوت فى اللحظة نفسها بالرغم من تأكده من أن المعلم كتكوت هو الذى وشى به لضابط المبـاحث وكان ريعو إذا لامه أحدهم لقبـوله العمل لدى المعلم كتكوت بعد الذى جرى كان يغمز بعينه ويقول :

ما هى دى فرصتى عشان أقرصه قرصة تطلع بالدم .

ولكن الذين كانوا يسمعون تعليق ريعو كانوا يعلمون يقينا أن ريعو كذاب وجبـان وليس بوسعه أن يرد الضربة للمعلم ، وأن قـبوله العمل مع المـعلم كتكوت ، هو قـدر مفـروض عليـه لأنه لا يعرف مكانا آخـر يذهب إليـه غيـر قهـوة كتكوت وكـان ريعو يعلم فى قـرارة نفســه أنه لا يستطيع أن يؤذى المعلم كـتكوت أو يثأر منه ، ومع ذلك قال للناس بعد موت المعلـم كتكوت الذى فارق دنيانا بعد أربعين عـاما من انتهاء الحرب العالمية .

نفد بجلده أما أنا كنت مجهز له حتة خازوق .

وضــحك الـناس بالرغم من أنهـم كـانوا يؤدون واجب العــزاء فى السرادق المنصـوب أمام القهوة وبعـضـهم تمادى فى السخـرية بريعو وقال له أحدهـم طيب اعتقه لوجه الله عـشان خاطرنا والمسـامح كريم يا معلم ريعو .

المهم أن ريعـو مات بعد المـعلم بعامين اثنين فـقط ، ولكنه للعجب هجر القهوة وانهمك فى تشكيل رابطة لعمـال القهاوى وجعل من نفسه رئيسـا يتقاضــى عمولة من أصــحاب القهـاوى ونسبـة من القهوجـية

وكانت آخر إنجـازاته فى الحياة أنه طبع بطاقات عليـها اسمه مسـبوقة بلقب المعلم ورقم تليفون الحاج سيد الجزار على أنه تليفون الرابطة .

وجرى على قهوة كتكوت مـا يجرى على كل شىء فى الحياة ماتت القهوة بعد مـوت صاحبها بأشهـر قليلة ، اختلف الورثة الذين لم يهتم أبوهم بتدريبهم على أى عـمل غير عمل القهوة وانتهـزوا فرصة عرض أحد التجـار عليهم خلو رجل مائة ألف جنيه فتـنازلوا له عن القهوة مع أنهم كانوا يستأجرون القهـوة وليست ملكا لهم وحل محل القهوة محل آخر ديكوراتـه تكلفت مئات الآلاف ، مـحل أحذية الحـذاء عنده بالشىء الفلانى ولم يكن هذا غـريبا ، ففى السنوات الأخيرة حـلت الجزم محل الكتب والتحف والقهاوى حتى أكاد أقول إن القاهرة تحولت إلى متحف كبير زاخر بكل أنواع الجزم ومن كل المقاسات .

٢ حكاية السيد البسـيونى

أقسم عبد الـودود أفندى أن يحطم رأس هذا الولد القذر ريعو ، وأن يحطم فى الوقت نفسه رأس المعلم كتكوت إذا لزم الأمر . ما الذى جرى للدنيا ؟ وهل هانت أقدار الناس إلى هذا الحد ؟ عبدالودود أفندى البسيونى .. وكيل قلم المستخدمين بمصلحة المساحة يأتى عليه حين من الدهر يلقى فيه الإهانة .. وممن من هذا الولد الهلفوت الذى يشبه البريصة الأصفهانى ! هذا المدعو ريعو الكلب .. يزجر عبد الودود أفندى ويصرخ فى وجهه .. قوم بقى هوينا يا عم عبد الودود ! ما كان عبد الودود أفندى يتصور أو يخطر على باله أن يأتى يوم يصبح فيه هدفا لسخرية الولد ريعو . تصوروا .. يطردنى من القهوة مع أن وجودى فيها ينقص من قدرى ويرفع من قدرها ! أربعون عاما مضت وعمك عبد الودود البسيونى يتردد على القهوة وفى مواعيد ثابتة يخرج من المصلحة إلى البيت ، يأكل لقمة وينام بعض الوقت ، ثم يتهيأ للخروج بعد أن يرتدى البدلة والصديرى ويكبس الطربوش على رأسه ويمسك بالمنشة بين أصابعه ، أربعون عاما لم يتخلف مرة واحدة ، ساعده على تنفيذ الروتين إياه أنه عاش حياته أعزب ، فلم يتزوج عبد الودود ولم يفكر فى ذلك ، وكان من عادته إذا جلس على القهوة التصفيق للجرسون .

فى البداية كان الجرسون يدعى عم عبده ، وبعد ذلك جاء الولد

ريعو . وكـان الولد ريعو حريصا علـى تقديم كل الخدمات لعـبدالودود أفندى مع الاحـتـرام الـكامل . ولكن منذ سـبع سـنوات تغـيـر وضع عبدالودود فى المـصلحة ، خرج إلى المعاش عندمـا وصل الستين ، لم يرحمـوه ولم يتركوه يوما واحـدا بعد المعـاش وضاقت به الأرض فلم يكن يعـرف أى شىء إلا الذهـاب فى الصـبـاح البـاكـر إلى مـصلحـة المساحة، ثم العـودة ظهرا إلى البيت ، ثم النوم بعض الوقت ثم الذهاب إلى قهوة كتكوت وقضاء بعض الوقت قبل العودة إلى البيت من جديد ، ليبدأ مشواره الذى تكرر على مـدى السنين . وحرص البسيونى أفندى على أن يقـضـى بعض الوقت على قـهوة كـتكوت بعـد المعـاش ، نفس المدة التى كان يقضيها على القـهوة قبل المعاش . واستطاع أن يحافظ على هذا الأمر سنتـين كاملتين . ثم بدأ يخرج على النظـام الذى فرضه على نفسـه طول حياته . أصـبح يتأخر على قـهوة كتكوت أحـيانا إلى منتصف الليل وأحـيانا إلى ما بعـد ذلك . الغريب أن البسـيونى أفندى كان يحتقـر الذين يطيلون السهر على قهوة كـتكوت والقهاوى الأخرى وكان يصـفهم بالصيـاع . وهاهى الظروف تحكم عليه بالانضـمام إلى صفوف الصياع وقلالات الأصل . ياله من رصيد سيىء يا عبد الودود بعـد حياة عـريضة وحـافلة بالوظائف المـيرى التى يسـيل لها لـعاب الكثيـرين . ولو أنصف الزمان لهيـأ لعبد الودود صـاحب قلم من بتوع الصـحافة يتفـرغ لقصة صعود ورفعة عبدالـودود البسيونى ، الحاصل على شـهادة الثـقافـة العامـة من مدرسـة الدواوين الثانوية . وبعـدها بأشهـر الموظف بقلم المستـخدمين بمصلحـة المساحة . ومن يـومها وعبـدالودود أفندى يلتزم بـالصديرى والكرافـتة والطربوش والعـصا الكريز بين أصـابعـه . وحرص عـبـد الودود أفندى على طلب الشـاى بالحليب ، طبعا طلب واحد لاغير ، ولـكنه كان يدفع فيه ثلاثة تعريفة ، قرش صـاغ ثمن الشـاى وتعريفة بقشيش لريعـو . ولذلك حرص ريعو على استقبال عبد الودود أفندى بحركات بهلوانية مبالغ فيها كأنه قرد .

فهذه التعريفة فى ذلك الزمان كـان من شأنها تأمين وجبة إفطار كاملة لرجل . ولكن آه من غدر الزمان ومن خيبة البخت وهى خيبة بلا حدود وأدت إلى أن الولد الصـايع ريعو يتـجـرأ على طرد عبـد الودود أفندى وكيل قلم المستـخدمين بمصلحة المساحة سابـقا ، ويصيح فى وجهه صائحـا قوم بقى من ع القـهوة وهوينا . يادى البـخت الأسود ، وعلى رأى عمك شندى مطرب نزلة أم العـواجز قرية عمك عـبدالودود . كانت له أغنية شائعـة فى محافظة الغربية.. يابخت يابو البخـوت ليه لبخت ، الناس تلبخ فى الوحل وأنا فى الناشـف لبخت . ولكن كيف تـجرأ الولد الهزيل ريعـو على طرد عبدالـودود أفندى . الحق أن عبدالودود نفـسه يتحمل جـزءا من المسئولية . فـهو الذى مد فترة الـجلوس على القهوة من ساعتين إلى سبع ساعات وربما أكثر من ذلك أحيانا . ثم هو نفسه الذى تهـاون فى مظهـره بما لا يـليق به كوكـيل لقلم المـسـتـخدمـين بمصلحة المساحة ، وما هى مصلحة المساحة ؟ إنها ليست كغيرها من المصالح كمصلحة القطن ومصلحة الكيـمياء ومصلحة المجارى . إنها المـصلحة التى تصـنع خرائط البـر المصـرى كله وتحـدد الحيـازات والأملاك ومنذ أيام البـاشا محمـد على وحتى اليوم . كـما أن موقعـها اختير بدقـة متناهية .. أمام مديرية الأمن لكى يتـحقق لها الأمن الكامل بفضل وجـود قوات الأمن وبلوكـات النظام وعســاكر الأمن المـركزى وبفضل هـذا الموقع المحـترم أتيح للبـسيـونى أفندى مصـادقة بعض ضبـاط الشرطة الشبـاب عندما كان مـجرد موظـف بالقلم ، ثم صادق ضباطا كبارا عندما صار وكيلا لقلم الـمستخدمين . وكان يجلس معهم على قهوة صـمويل وهى قهوة محـترمة ولها تقاليـد عريقة ، فلم تكن تسـمح بالجلوس عليهـا إلا لكبـار الموظفـين أمثـاله وأصحـاب الرتب المتوسطة فى الشرطة وتجار القطن . عيب عـمك عبدالودود البسيونى إنه فرط فى تقاليـده القديمة ، سمح لنفسه بالجلوس على الـقهوة لعدة ساعات طويلة ، ليس هذا فـقط .. بل إنه سمح لنفسه بتخفـيف ملابسه

فى حـر الصـــيف ، فـخلع الطربـوش أولا ثم الكرافـتـة بـعـد ذلك ثم الصديرى ثم الجاكتة .وكـان يذهب بالبنطلون والقميص . أما البنطلون فلم يكن يصلح لهـذه المهـمـة الجديدة ، فـهو بنطلون مـقلم وشتـوى وقماشـه سميك ومشـدود إلى كتفيه بحـمالات ، أما القمـيص فهو بكم طويل وهو من قمـاش أشبه بالعبـك .. سميك وخشن . أمـا الحذاء فله رقبـة طويلة لأن البســيونى أفندى كان حـريصا على عظام ســاقه فى فصل الشتـاء . وعاما بعد عام وفى هوجة الغـلاء التى هبت على مصر كالإعصـار ، اضطر عبدالودود أفندى إلى اختصار النفـقات ، وكان من ضمن البنود التى اختصرها عبدالودود أفندى ، هى التعريفة التى كانت تذهب بقشـيشا للواد ريعـو . بعدها تغيـرت طريقة ريعو فى المـعاملة وأحيانا يلقى بطلب البـسيونى أفندى على الترابيزة بطريقـة غير لائقة. وأحيانا كان يتعمد إلقاء بعض مـحتويات الكوب على ملابس البسيونى ولا يكلف نفسه كلمـة اعتذار واحدة . حتى عندما احتج البـسيونى مرة على هذا الإهمال المتعمد من جانب الولد ريعو رد بطريقة غير مهذبة .. يعنى دلقنا ميه نار !! وكأن الشىء الوحيد الممنوع دلقه على الناس هى مية النار فقط ، أما كل ما عداها فـهو مسموح به ولا جناح عليه! وفكر عبدالودود البسـيونى أن يهجر قهوة كـتكوت ولكن إلى أين ؟ إلى قهوة السـروجى .. أعوذ بالله . إلى قـهوة صـمويل .. أظرط وأضل، وتذكـر البسـيونى الحـاجة كـاملة ، صاحـبة البيت الـذى حل ساكنا فيـه منذ عشرين عاما . كانت الحاجة كاملة صاحبة أراض زراعية بناحية الهرم، فلما ضيقت الثورة الخناق على ملاك الأراضى ، باعتها وأقامت عمارتها على شاطـىء النيل وأجرتها بـخمسـة وعشـرين جنيها ، ولـكن الثورة هبطت بالإيجارات فصارت عشرة جنيهات فقط ، ولعل هذه الحركة هى الحسنة الوحيدة للثورة . بعد ذلك كل ما فعلته الثورة هباب فى خراب . الولد ابن عمك عثمـان بتاع السندوتشات أمام المصلحة . أصـبح نقيبا لعمـال مصلحة المسـاحة ، وصار عـضوا بمجلس الأمة ، وسـافر إلى

أوروبا فى بعثة للمصلحة ، وعاد من هناك يجلس على القهوة التى يتردد عليها أسياده ، لأ .. وايه ؟ صارت له سيارة بينما عبدالودود أفندى يستخدم الموتورجل ، ويضطر أحيانا إلى أن يحشر نفسه داخل الأوتوبيس . على كل حال ، الحاجة كاملة الخالق الناطق الحاجة ريا زميلة الحاجة سكينة بتاعة اسكندرية . ولكنها حريصة على وضع المساحيق وربط رأسها بالمنديل أبو اويه المزين بقطع الفضة اللامعة وهى منذ مات زوجها وهى حطة البسيونى فى دماغها . زوجها كان رجلا متنفذا كرئيس لقلم المحضرين بالمحكمة الكلية ، والبسيونى وكيل قلم المستخدمين بالمساحة . لعل الحاجة كاملة لا تدرك عمق التغيير الذى حدث لهذه الوظائف بعد الثورة . زمان رئيس قلم المحضرين يعامل معاملة وكلاء الوزارة ، واليوم وكيل الوزارة نفسه ليست له أى صفة ، وبعضهم يتشعبط على سلم الترومای ، وربما اضطر إلى التعامل على النوتة مع البقال والجزار وبالرغم من التلميحات والإيماءات والإشارات إلا أن البسيونى كان شديد الحرص على أن يبدو صامدا وغير قابل للاحتواء . ولكن ريعو خرب الله بيته وكب زيته جعل البسيونى يعيد التفكير فى أمر الحاجة كاملة . ولاشك أن هناك فوائد كثيرة سوف يجنيها البسيونى لو اقترن بالحاجة كاملة . أول شىء سيوفر الجنيهات العشرة إيجار الشقة ، وستعينه هذه الجنيهات على شراء بنطلون صيفى وحذاء خفيف وقميص بدون ياقة لاستخدام الصيف .. وزواجه منها سيمنعه من السهر على قهوة كتكوت وسيرد له هيبته التى اهتزت وكبرياؤه الذى ضاع . وربما وجد البسيونى عندها لقمة حلوة، طبخة مسبكة وحتة لحمة بالبصل وشوربة فراخ بالخضار .

ومن يدرى ربما تسببت فى ترميم العظام التى نخر فيها السوس ، والركب التى أصبحت تشخشخ مثل قضبان سكك حديد الدلتا . ولكن كيف يستطيع البسيونى أفندى إعادة مد حبال الود بينه وبين الحاجة

كاملة ، خصوصا وهوفى آخر لقاء عاملها بشىء من العنف، أو على الأقل من قلة الذوق. تسلمت طلبا من مأمور القسم ولكنها لم تنجح فى فك طلاسمه ، فسألت البسيونى أفندى أن يقرأ لها خطاب المأمور ، فطلب منها الخطاب فدعته أن يتفضل عندها بعض الوقت لأن الخطاب فى الداخل . ولكنه اعتذر ، طلبت منه التمهل بعض الوقت حتى تأتى بالخطاب من الشقة ، ثم تركته على سلم البيت وهرعت إلى أعلى ، ثم عادت بعد فترة فلم تجد البسيونى أفندى . صحيح أنها تأخرت بعض الوقت، ولكن فيها إيه يعنى ؟ والناس لبعضها .. وإيه اللى جرى فى الدنيا يا ناس ؟ من يومها والعلاقة توترت بعض الشىء . ولكن تكفى إشارة بسيطة من جانب البسيونى فتعود العلاقة سمنة على عسل أو تزيد، انتهز البسيونى فرصة أول الشهر فصعد إلى الشقة ودق جرس الباب ، وعندما فتحت الباب فوجئت بالبسيونى شخصيا فتراجعت إلى الخلف بسرعة ، ثم عادت وقد غطت رأسها وقالت فى صوت منغم .. خطوة غزيرة اتفضل ، وتفضل البسيونى وجلس فى الصالون وعندما سألته عن المشروب الذى يفضله .. قال على الفور :

قهوة بإيدك الحلوة دى .

وفهمت الحاجة كاملة الإشارة فابتسمت وقالت:

من عينى ! أغرب شىء أن البسيونى كان يبحث لنفسه عن مبرر لصعوده إلى الشقة غير حكاية دفع الايجار ، ولكنها لم تسأله عن سبب صعوده ، وكأن صعوده إليها مسألة طبيعية كان يجب أن تحدث منذ فترة طويلة .

لم تستمر طويلا فترة التمهيد للحدث الأكبر ، فبعد فترة قصيرة تم الزواج بين الحاجة كاملة والبسيونى أفندى وكيل قلم المستخدمين بمصلحة المساحة .

مرت أيام كثيرة قبل أن يدرك أنه خرج من نقرة ووقع فى خندق عميق. البسيونى الذى كان يشعر بأنه فى حاجة إلى ممرضة، تحول هو نفسه إلى ممرضة للحاجة كاملة . اكتشف البسيونى بعد شهر

واحد من الزواج أن الحاجة هى مستودع لجميع الأمراض . ثم إنه لم يتحول إلى ممرضة فقط ولكنه تحول أيضا إلى فراش للبيت ، هو الذى يذهب إلى الشهر العقارى وإلى الجمعية الاستهلاكية وإلى مكتب التموين وإلى السكان لجمع الايجار ، ثم إلى البنك لوضع حصيلة الإيجار هناك . وشعر البسيونى أن الذى أوقعه فى هذه المحنة هو الولد الصعلوك ريعو لولا ريعو وسفالته لما سقط البسيونى فى هذا المطب الذى لا خلاص منه على الاطلاق . واللى زاد وعاد أنه عندما قرر التمرد على هذا الحال المايل وخرج من البيت لم يجد إلا قهوة كتكوت ليجلس عليها . لا يعرف البسيونى كيف قادته قدماه إلى القهوة وإلى الكرسى الذى اعتاد الجلوس عليه بالقرب من مجلس الأدباء . هؤلاء الأدباء هم وحدهم من دون زبائن قهوة كتكوت الذين لم يتغير موقفهم من بسيونى سواء كان فى الخدمة أو خارجها ، سواء كان بملابسه الكاملة أو بالبنطلون والقميص .

وأحدهم زجر الولد ريعو ذات مرة عندما ضبطه وهو يسخر من بسيونى . هذا الأديب للأسف الشديد بسيونى يعرف صورته ولكن اسمه يغيب عنه دائما .

جلس بسيونى كعادته وصفق للواد ريعو ، ولكن الولد اللئيم ريعو أشار له بيده وقال صائحا :

بطلوا التصقيف والحاجات دى. مراكز القوى خلاص وقعت ونايمة دلوقت ع الأسفلت .

قالها ريعو وضحك واستغرق فى الضحك وضحك معه بعض الجالسين على القهوة وتمنى لو كان معه مطوة قرن غزال ليغرزها فى صدر ريعو، وكان يتمنى قبل ذلك أن يكون معه قلب شجاع يعينه على ارتكاب مثل هذه الجريمة . هذه الحياة لم تعد تستحق أن يحياها الإنسان .

وكيف وهو بين نارين، نار ريعو ونار الحاجة كاملة . ولكن نار ريعو هى نار مع فضيحة بجلاجل ، هى نار قطاع عام ومشاع للجميع،

واللى ما يشترى يتفرج . أمـا نار الحاجة كاملة فهى قطاع خاص ، نار ملاكى ، نـار يتقلب البـسيـونى على جمـرها ، ويتفـرج عليهـا وحده ، ويعـانى منها وحـده ، نار كتـيمى وسكيتى .. ولا من شـاف ولا من درى. وإذا كـان الموت هو الـحل الوحيـد لهـذا الحـال الذى هو فيـه ، فـالبقـاء مع الحاجـة كاملة هـو موت مع وقف التنفـيذ ، هو مـوت مع الستر، والستر هو أعظم هدية يقدمها الله لعباده الطيبين .

وخرج البسيونى من قـهوة كتكوت راكضا ولم ينس أن يلقى نظرة ذات معنى على الولد ريعـو وعلى المعلم كتكوت أيضـا وهو جالس فى مكانه منذ بداية الحرب العالمية الأخيرة . وأسرع البسيونى الخطى إلى شارع المرسى حـيث يقيم . وصعد السلالم بتثـاقل شديد حتى وصل إلى الدور الأخيـر . وطرق الباب عـدة طرقات حتى فـتحت له الحـاجة كاملة ، فأخذ طريقه من الباب إلى الغرفة، وخلع ملابسه وتهيأ للنوم . ولم يجد لديه رغبة فى الرد على السؤال الذى وجهته له الحاجة كاملة . ولم يمض وقت طويل حتى استغرق فى نوم عميق عميق عميق .

وفى المساء كان ثمة شادر متوسط أمام بيت الحاجة كاملة والشيخ سلومـه يقرأ القرآن مـن ميكريفون مـشروخ ، وبعض سكـان الشـارع يجلسون فى خشوع يستمعـون إلى القرآن ويشربون القهوة وبعضهم يستحلب قطع الأفيون . لم يكن أحد من المعزين يعرف المرحوم ، وإن كانوا جـميـعا يعـرفون اسـمه .. البـسيـونى ولكن لم تكن هناك صلة حقيقية تربط بينه وبين أحد منهم . المنظر الذى يستحق التسـجيل ، هو منظر الولد الحقير ريعو وهو يقف على باب السـرادق يستقبل المعزين ويتقبل منهم واجب العزاء ، بينما كان المعلم كتكوت يجلس على المقعد المجاور لدكـة المقرىء ، ولم ينس المعلم كتكوت أن يشـير للولد ريعو بين الحـين والآخر مـؤكـدا عليه ضـرورة الالتـزام بواجبـات مركـزه كمندوب عن أهـل الميت الذى لا أحد يعـرف أين هم ؟ ولا من هم على وجه التحديد ؟

٢

القطط السوده !

خطاب افندى مدرس إلزامى كانت له شهرة واسعة فى الجيزة بسبب أشعاره الحماسية التى كان يلقيها بمناسبة وبدون مناسبة فى أغلب الأحيان ، وهى أشعار حماسية ووطنية ولكنها فقيرة الموهبة وخالية من الفن . وكان الجرسون ريعو هو أعظم مشجع للشاعر خطاب، عندما كان خطاب افندى يقفز فجأة واقفا داخل القهوة ثم يلقى قصيدته التى هى غالبا بدون معنى وبدون هدف، أشعار كان يستخدمها فى المعارك الانتخابية ضد معارضى حزبه، الذى كان يفخر بالانتساب إليه وهو الحزب السعدى ، وهو حزب أقلية كانت له قيادة ولم يكن له قاعدة أو جماهير من أى نوع .

ولكن الحزب إياه كان يقفز إلى السلطة عندما يغضب الملك على حزب الوفد ويطرده من السلطة ، عندئذ ينجلى خطاب أفندى ويلمع ويجوب الجيزة كلها يلقى أشعاره الفخيمة على الناس سواء رغبوا فى سماعها أم انصرفوا عنها .

وكان خطّاب أفندى فى ظل حكومة السعديين يمارس حياته بين الناس كواحد من كبار المسئولين ، فكان يقوم بفك أسر بعض المواطنين الذى احتجزهم البوليس على سبيل التحرى ، ويضمن بعض التجار الذين وضعوا فى أقسام البوليس للعرض على النيابة بسبب مخالفتهم للتسعيرة . وكان خطاب أفندى يتلقى بعض الهدايا نظير هذه الخدمات ، وكان ضباط البوليس يعاملونه باحترام ويتقون شره لصلته

ببعض وزراء الحكومة . وكان له بيت شعر مشهور يحشره فى كل قصيدة وكان يهاجم فيه المعارضين للحكومة :

صم بكم قوم عجب قطط سود ولها ذنب !

وكانت الجماهير التى يتصادف وجودها يصفقون بشدة ، ولعل هذا هو السبب الذى جعل خطاب أفندى يحشر البيت إياه فى كل قصيدة ، كما أن الواد ريعو كان يداعب خطاب أفندى أحيانا قائلا : من زمان ماسمعتش القطط السودة . ولكن خطاب أفندى كان يواجه أياما صعبة عندما يخرج الحزب السعدى من السلطة ، ولذلك كان يصدر قرار بنقله إلى مدرسة فى ريف الجيزة ، فيختفى رغم أنفه من قهوة كتكوت ، لأن مشواره إلى المدرسة الريفية كان كفيلا بهد حيله ، ولكنه كان يعاود الظهور يوم الخميس ويوم الجمعة ، ولا يكف عن ترديد أشعاره ضد الحكومة القائمة إذا كانت ضد الحزب السعدى . وفى المرة الأخيرة التى جاء فيها الوفد إلى السلطة اختفى خطاب تقريبا من الجيزة ومن قهوة كتكوت ، ولكنه عاد إلى الظهور بعد حريق القاهرة ومجىء وزارة على ماهر ؛ ثم وجد وسيلة استطاعت إعادته إلى مدرسته القديمة فى شارع سوق البرسيم فى الجيزة ، ولكنه لم يستطع الحصول على ميزات أخرى غير النقل فلم يكن بإمكانه التوسط لدى قسم البوليس للإفراج عن أحد ، كما أن على ماهر باشا لم يكن من أعداء الحزب السعدى ، والبلد كلها كانت تعيش فى ظل الأحكام العرفية بعد حريق القاهرة ، وكان السهر ممنوعا والمحلات العامة تغلق أبوابها قبل التاسعة مساء . كانت أياما عاصفة بلاشك ، ذهب على ماهر وجاء أحمد نجيب الهلالى، حكومة فى نظر خطاب أفندى بلا لون وبلا رائحة، ولكنها أعطت مجالا لخطاب أفندى عندما رفعت شعار التطهير ، فانطلق يؤلف أشعارا فى ضرورة تطهير البلد من الخونة والمفسدين ، وركز حملته على النحاس باشا ، ولكن بعض الشباب الوفدى المتحمس تعقبه ذات مساء وضربه علقة ساخنة .

واستثمر خطاب أفندى الحادث فنام على سريره بالمستشفى ،

ورفع قضية أمام المحاكم يطالب بتعويض مالى كبير ، متهما النحاس باشا شخصيا بالتحريض على ضربه . ولكن فجأة وخطاب أفندى فى المستشفى وقع حادث ليس له شبيه فى تاريخ مصر ، فقد قامت ثورة ٢٣ يوليو وتولى الجيش إدارة شئون البلاد ، وجاء محمد نجيب رئيسا للجمهورية ، وأعتقد رواد قهوة كتكوت أن عصر خطاب أفندى انتهى ولن تقوم له قائمة بعد ذلك . كان الشاب الذى تولى أمر هيئة التحرير بالجيزة ضابطا سابقا بالقوات المسلحة ، وكان برتبة اليوزباشى عندما ودع الحياة العسكرية واشتغل بالعمل السياسى فى الهيئة، ولم يكن له سابق معرفة بالعمل السياسى أو التعامل مع الجماهير ، ولكنه كان مؤمنا بالثورة. ومتحمسا للتغيير . ولكن التغيير إلى ماذا ؟ وإلى أين ؟ كانت مهمة صعبة للغاية، ولكن عزاءه الوحيد أن الناس كانت متحمسة للثورة ولديها الاستعداد للالتفاف حول رجالها.. واحتل الشاب الطيب مكتبا كان يتبع المجلس البلدى ، ونصحه البعض بإقامة مؤتمرات جماهيرية ، واستفسر عن الوسيلة التى تؤدى إلى عقد هذه المؤتمرات ، فنصحه البعض بإرسال بطاقات دعوة لبعض الشخصيات فى الجيزة ، ونصحه البعض الآخر بالقيام بجولة فى أنحاء الجيزة للتعرف على الجماهير . ولكنه اختار الاقتراح الأول بإرسال بطاقات الدعوة ، وحددوا الموعد وزينوا المقر ، ولكن المنظر لم يكن يدعو إلى الاطمئنان ، لبّى الدعوة عدد من أصحاب محلات البقالة ورئيس المجلس البلدى وبعض الصياع الذين وجدوها فرصة لشرب الشاى وتدخين السجاير .

وجلس مندوب هيئة التحرير الشاب يشرح للناس أهداف حركة الجيش ، ولم يفهم أحد شيئا على الاطلاق . ويبدو أن مندوب الهيئة لم يكن يفهم شيئا هو الآخر، وجلس المندوب قلقا على مستقبل الهيئة ، ولكن قلقه على مستقبله السياسى كان أكبر . وخيم الصمت على الاجتماع ، فلم يكن للحاضرين أى رابطة من أى نوع من قبل .

وربما لم يلتقوا فى أى مناسبة قبل ذلك. ولم يعرف مندوب الهيئة

الشاب كيف يتصرف لمواجهة هذه الحالة من الاحباط والخيبة .. وفجأة انتفض أحد الحاضرين كالإعصار ، وألقى قصيدة عصماء وسرعان ما عرف الناس صاحبها عندما راح يصرخ بكل قوة ببيت الشعر الشهير : قطط سود ولها ذنب ..! وعندما انتهى خطاب أفندى من قصيدته العصماء، انطلق مندوب الهيئة نحوه واحتضنه بشدة ، وأمسكه من يده وظل ممسكا بها حتى انفض الاجتماع . ودعاه إلى العشاء ، ولم يتركه إلا عند باب منزله ، وبالرغم من إلحاح خطاب أفندى على النزول قبل البيت بمسافة ، إلا أن مندوب الهيئة الشاب أقسم ألف يمين أن لا يتركه إلا عند باب البيت ، ولو كانت الظروف تسمح لبقى معه حتى الصباح. ولكنه تواعد معه على اللقاء عصر اليوم التالى فى مقر الهيئة .. عندما خرج خطاب من الاجتماع ، كان قد أصبح المسئول التثقيفى للهيئة . ولما كان المقر لا يسمح بوجود مكتب للأستاذ خطاب ، فقد اتخذ من قهوة كتكوت محلا مختارا له .. وكان مندوب الهيئة الشاب يتردد عليه أحيانا ، ثم أصبح يلازمه كل ليلة ويستشيره فيما يجب عليه أن يفعله من أجل تحريك الجماهير وحشدها ، ثم أصبح يعتمد عليه فى كتابة الخطب المناسبة ليلقيها فى المناسبات الهامة . وصارخطاب أفندى هو ممثل حركة الجيش فى الجيزة ، والتف حوله أصحاب الحاجات ، وعاد لخطاب أفندى نفوذه القديم ، يتوسط للناس لإخراجهم من قسم البوليس ، ويتوسط لهم لإلحاقهم بالوظائف لزوم أكل العيش .. وكان المعلم كتكوت شديد الذكاء لدرجة أنه أعفى خطاب أفندى من ثمن المشروبات ، عشان خاطر البيه الضابط الشاب الذى صار مندوبا لهيئة التحرير ، ثم تطورت الأمور وذهبت بعيدا إلى درجة أن الضابط الشاب مندوب الهيئة كان يستفسر عن الأهداف الحقيقية للهيئة ، وكان خطاب أفندى لا يبخل على الضابط الشاب بنصائحه واقتراحاته.. وأقنعه بأن مصلحة العمل الجماهيرى والسياسى فى الجيزة أن يكون لقهوة كتكوت الحق فى السهر حتى الصباح .

وبالفعل بذل الضابط جهدا مشكورا حتى حصل لقهوة كتكوت على هذا التصريح .

وبالطبع لم يبخل المعلم كتكوت على خطاب أفندى ، فأجرى عليه راتبا شهريا خمسة جنيهات عدا ثمن المشروبات . فلما كثرت الطلبات وتضاعفت المشاريب ، اشترط المعلم كتكوت على خطاب أفندى أن يعفى من المشروبات الضيوف الذين يجلسون على مائدة خطاب أفندى، أما الذين يقصدونه لأشغال أو مصالح ويجلسون بعيدا عنه فيدفعون ثمن مشروباتهم .. ولم يمانع خطاب أفندى بل رحب بالفكرة، واقترح اقتراحا مفيدا هو أن تضاعف القهوة ثمن مشروبات أصحاب الحاجات والمصالح ، بشرط مضاعفة المكافأة المالية لخطاب أفندى إلى عشرة جنيهات، وانتهز المعلم كتكوت الفرصة فبالغ فى ثمن المشروبا ، ولكن الزبائن كانوا يقبلون بالأثمان التى يحددها المعلم كتكوت ، فيكفى أنهم يلتقون بخطاب أفندى ويحصلون على كروت توصية ، وهى كروت البيه الضابط الشاب مندوب هيئة التحرير بالجيزة .. وكان لها مفعول السحر فى البداية ، ثم هبط تأثيرها بعد ذلك ، ثم تلاشى التأثير تمام .. ومع ذلك لم تنقطع وفود أصحاب الحاجات عن التردد على قهوة كتكوت، ولم يتوقف خطاب أفندى عن ترديد الوعود بكروت التوصية مع علمه بأنها أصبحت غير ذى موضوع.

المهم أن الفائدة تتم بحضور الوفود وطلب المشاريب ودفع ثمنها للمعلم كتكوت ، ثم صرف المكافأة الشهرية «لخطاب أفندى» .

أخيرا طابت الحياة واستقرت لخطاب أفندى ، فالثورة باقية إلى نهاية الدهر ، والبيه المندوب شاب لايزال ، وسيبقى فى منصبه إلى نصف قرن من الزمان .. لم يدرك خطاب أفندى أن الحياة ممكن أن تستقر ولكنها لا تستمر على حال واحد ، ولو حدث هذا لفسدت الحياة وربما انتهت أيضا . فجأة اختفى الضابط الشاب ، فلم يعد يراه أحد فى الجيزة ، حتى مكتب الهيئة أخلوْه، انطفأت أنواره وغاب حراسه ، وسمع خطاب أفندى أن الهيئة فشلت فى تحقيق أهدافها ،

ولذلك سيـجرى تصـفيـتها وإغـلاق أبوابها وتسـريح أعضـائها . هذه إشـاعـة وحق الله يا خطاب أفندى ، فـالهـيئـة كانت آخـر انضـبـاط والجماهير التفت حولها بدليل تواصل البـشر التى تقصد قهوة كتكوت لمقـابلة خطاب أفندى . ولكن هكذا المصـريون لا يستقـرون على قرار ولا يجمعون على رأى واحد. وهم أهل هدم لا أهل بناء ، وقد حدث هذا من قبل للحزب السعدى ، رغم أنه كان حـزبا جماهيريا ليس له نظير !! وتصور خطاب أفندى أنها مجرد إشاعة، وربما غمة لا تلبث أن تزول ، ولكن غياب الضابط الشاب أقلقـه بشدة ، ثم تضاعف قلقه عندما بدأت الوفود التى تقصـد القهوة فى الانحسار ، ثم مـا لبثت أن تضاءلت ثم تلاشت.

وعلى الفور أمسك المعلم كتكوت يـده فلم يعد يدفع الهدية الشهرية للأفندى خـطاب، والولد ريعـو بـدأ يقل أدبه على خطاب أفـندى وعلى البقية الباقيـة من الذين كانوا يقصدونه للزيارة والسلام . ولكن خطاب أفندى لم يتعلم الدرس ، وثار وغضب وطالب الجميع بضرورة احترامه وتوقيره ، وألمح لـلمعلم كتكوت بأنه سينتـقم منه انتقاما رهيـبا عندما تعود المياه إلى مجاريها .. وأقسم أنه عندما يعود الزمان إلى الابتسام سينقل نـشاطه السيـاسى والجمـاهيرى إلى قهـوة عبـده الانجليزى .. ومرت شهـور طويلة ، وجرت مياه كـثيرة تحت كوبرى عـباس قبل أن يكتشف خطاب أفندى أن هيـئة التحرير قـد جرى عليها مـا يجرى على كل شىء فى الحـياة ، وأن الاتحـاد القومى حل مـحلها، وعندمـا شاع الخبر وذاع ، احتدمت الخلافات بينه وبين الولد ريعو والمعلم كتكوت ، وذات خناقـة قـامت بينه وبين الولد ريعـو اضطر المـعلم كـتكوت إلى مـغادرة مكانه بجـوار النصبـة ، وأغلظ القـول لخطاب أفندى واضطر المعلم لدفـعه دفعـة قوية خارج القـهوة . وعندما تـدخل البعض لفضّ الاشتباك ولفتوا نظر المعلم كـتكوت إلى سابق عهده . ردّ عليهم المعلم كتـكوت قائلا : سـيبـوكم م الكلا الفاضى ده، خطاب راحت علـيه زى ما راحت على بديعة !!

٤

عـــــودة خــطـــاب !

لم تتحقق تنبؤات المعلم كتكوت ، فسرعان ما عاد خطاب أفندى إلى الاتحاد القـومى كان الاتحاد القومى خـطوة أكثر وضوحـا من منظمة التحـرير كان اتحـادا بين جمـيع الطبقـات العمال وأصـحاب الأعـمال الفلاحين وأصحاب الأطيان المستأجرين وأصحاب البيوت، كان ائتلافا تقدره السلطة ويسـيطر على المراكـز الحساسة فـيه الضبـاط الأحرار وبالرغم من أن عودة خطاب أفندى كـانت متواضعة لأن قـيادة الاتحاد فى الجيـزة كانت فى يد أحد أبناء الـعائلات الثرية فى المـدينة ، وكان على معـرفة بالناس وبأقـدارهم ، ولذلك استـقبل خطاب أفندى بفـتور ولكن من حـسن حظ خطاب أفندى أنـه كان زمـيـلا للرجل الثـرى فى الحزب السـعدى ولذلك خصص لـه مكتبا صـغيرا بالقـرب من الباب.. ولما كان خطاب أفندى قد عمل فترة من الوقت مدرسا فى بعض القرى القريبة من الجـيزة ، فقد كانت حجـرته الصغيرة تضيق أحيـانا بالعمد والمشـايخ، وهو الأمر الذى جعله يرتفع فى عـين المسئـول عن العمل السـياسى بالجـيـزة ، لدرجة أنه كـان يستـعـين به فى عقـد الندوات والمؤتـمرات فى القـرى المحيطـة بالجيـزة ، وهى ندوات كانت أشـبه بسـهـرات طيبة فى بيـوت العمد والمـشايخ ، وكان الحـوار يدور حول موائد الطعـام الدسم ، حيث كانت المـوائد الممدودة تضم كل خـيرات الريف .

ولكن عودة خطاب أفندى كـان لها صدى بعـيد فى قهـوة كتكوت ، وكان أول المـهنئين هو المعلـم كتكوت نفســه والولد ريعو ، وفى أول زيارة لهما فى مكتب خـطاب أفندى ، انحنى المعلم على يد الأفندى فى محاولة لتقبيلها ، ولكن الأفندى سحب يده مستغفرا ربه ، واكتفى بغمز المعلم بطريقة ساخرة :

– مش أنا يا معلم اللى راحت عليه زى بديعة ؟!

ورد المعلم قائلا :

– يا باشا ما تدقش على الكلام خصوصا ساعة غضب ، والشيطان شاطر وربنا يجازى اللى كانوا السبب .

وتساءل خطاب أفندى:

– ومين همه دول ؟

وصاح الولد ريعو بدون وعى :

– قطط سود ولها ذنب !!

وبدا على خطاب أفندى أنه قبل اعتذار المـعلم كتكوت ، ولكنه اعتذر عن زيارة القهوة لأنه مـشغول حبتين ، ووعد بالتـردد على القهوة فى فترة قادمة .

وعندما ضاقت حـجرته الصغيرة بزواره من العمـد والأعيان ، طلب إعداد مكتب أكـبر ، ولكن المسئـول اعتذر لخطاب قـائلا له : عد غنمك يا جحا . وانتهزها خطاب فرصة فطلب السماح له باتخاذ قهوة كتكوت محلا مختارا له ، ووجد المسئول فى قهوة كتكوت حلا للمشكلة فوافق على الفور . عادت أيام خطاب أفندى فى قهـوة كتكوت مع اختلاف فى الصنف ، كان المتـرددون عليه من العمد والمشايخ وأصـحاب العزب ، وكانوا أثرياء فعلا وأسخياء أيضا . مما جعل الولد ريعو لا يبتعد كثيرا عن المكان الذى يجلس فـيه خطاب أفندى . وأخذت الاتفـاقية القـديمة طريقـهـا إلى التطبـيق مع فـروق شـديدة. المـعلم يرفع السـعـر على المـترددين الأثرياء ، وخطـاب أفندى يقبض المـعلوم شـهريا ، وكـان

المعلوم لا بأس به فقد وصل إلى أربعين جنيها شهريا !

وهكذا حلقت السعادة فوق رءوس الجميع .. خطاب أفندى والمعلم كتكوت والولد ريعو . ولكن على رأى المثل .. يا قعدين فى حالكم .. المصايب جيالكم ! فجأة وقع حادث لم يكن على البال . وقع الانفصال بين شطرى الجمهورية العربية المتحدة . واعتكف المسئول عن الاتحاد القومى فى منزله ، ولاح فى الجو أن الرجل انتهى سياسيا وأنه سيلزم بيته إلى آخر العمر . ومع ذلك لم يحدث شىء يعطى مؤشرا عن جوهر التغيير مستقبلا ، وإذا كان الرجل المسئول قد لزم بيته فالاتحاد القومى ظل قائما ، والصحف تكتب اسم الرجل على أنه المسئول الأوحد عن الاتحاد القومى . وعلى مستوى خطاب فقد استمرت القعدات على قهوة كتكوت ، كما واصل رحلاته مع مسئوله المحلى إلى قرى الريف حيث الأرز المعمر والفراخ البلدى والبط المزغط وكان خطاب أفندى يبدى حماسا شديدا للمسئول الذى لزم بيته ، وخاض معارك رهيبة ضد الذين كانوا يتعرضون لسيرته بالسوء ، وذات وليمة فى بيت أحد العمد كان هناك شاب يبدو عليه أنه من طلبة الجامعة ، أكد أن المسئول الكبير فصلوه بالفعل وأن البحث جار عن رئيس جديد . وانبرى خطاب أفندى فسخر بشدة من الشاب وقال له مستنكرا :

– يفصلوه .. ليه ؟ هو طالب زيك . انت عارف انت بتتكلم عن مين ؟

ونظر الشاب بغضب إلى خطاب أفندى وقال له :

– أنا بتكلم عن السيد أمين الاتحاد القومى .. ممنوع الكلام يعنى ؟

ورد خطاب متعجبا :

– لأ مش ممنوع ، بس عيب . لأن دا راجل مش صغير ، دا عضو قيادة الثورة ، ووزير أكثر من مرة ، ورئيس وزارة الإقليم الجنوبى .. مش لعبة ، ثم دا لو خرج من السلطة هتحصل كارثة .

ورد الشاب قائلا فى هدوء :

– نفس الكلام اللى انت قلته عن أمين هيئة التحرير . وحصل إيه ؟

خرج من السلطة ولا حاجة .

وزمجر خطاب قائلا :

– خد بالك ومالوش لازمة تغلط انت بتتكلم عن أشرف الناس .. فاهم ؟

وتدخل أحد العمد الحاضرين وقال لخطاب أفندى :

– حيلك شوية يا خطاب أفندى ، لفندى ما غلطش ، ثم انت محموق ليه كده ؟ دا حتى أنت كنت سعدى زمان ، وكان ربنا فوق وعبدالهادى باشا تحت .. انت نسيت يا خطاب أفندى ؟

بالرغم من السهرة الطيبة والطعام الطيب ، إلا أن خطاب أفندى شعر بالضيق من الحديث الذى دار عن الثورة ، وخصوصا حديث الشاب الذى يبدو أنه من طلبة الجامعة ، وهناك شكوك بأنه شيوعى من بتوع روسيا . لكن ماذا لو صح كلام الولد الطالب وطردوا سيادة الأمين العام من منصبه وأصدروا قرارا بحل الاتحاد القومى كما حلوا هيئة التحرير من قبل ؟ كانت ضربة قاسية لخطاب أفندى عندما أذاع الراديو نبأ استقالة الرجل المسئول عن الاتحاد القومى . مع أن خطاب أفندى كان قبل يوم واحد فى زيارة هذا المسئول فى بيته ، وبالأمس فقط كان الرجل مصرا على الدفاع عن موقعه ، مع تمسكه بأن الاتحاد القومى برىء مما ينسب إليه من أخطاء ، وأنه إذا كانت هناك أخطاء فهى من فعل الغير . ما الذى حدث حتى يغير الرجل موقفه ويجعله يذهب بعيدا إلى حد الاستقالة ؟ ثم كيف يستقيل هكذا فجأة دون أن يعطى أنصاره فرصة لتدبير أمرهم ؟ شعر المعلم كتكوت بأن الرياح تأتى بما لا تشتهى السفن ، ولكنه لم يكرر ما حدث منه فى المرة السابقة حرص على أن يجلس مع خطاب أفندى حتى عندما انقطع سيل الزائرين الذين كانوا يقيمون فى المقهى ويلتفون حول خطاب أفندي، ليس هذا فقط ولكنه ذهب أبعد من ذلك لتأكيد موقفه الجديد ، حرص على أن يسدد الاتاوة الشهرية بالرغم من انقطاع سيل الزوار ونضوب

الموارد لقد علمته التجارب أن يفكر طويلا قبل اتخاذ خطوة متسرعة وغير محسوبة وهذا الرجل الشيطان خطاب أفندى قد يكون سيئا وملوثا ولكنه مثل القطط بعدة أرواح . وهو بالتأكيد سيعود إلى الواجهة مرة أخرى مهما تعددت وتغيرت أسماء التنظيمات . حتى الولد ريعو حرص على إحاطة خطاب أفندى بكل مظاهر التوقير والاحترام .

وبالرغم من ذلك . .اختفى خطاب أفندى من قهوة كتكوت عندما تأكد من أن الاتحاد القومي قد لحق بهيئة التحرير . وجاء الاتحاد الاشتراكى على أنقاض سلفه ولكن بوجوه جديدة ، وكان مسئول الجيزة هذه المرة أستاذا جامعيا لا يعرف من الجيزة إلا قهوة سان سوسيه الواقعة على جانب ميدان الجيزة الرئيسى ، ولا يعرف من أهلها إلا زملاءه من أساتذة الجامعة . وطالت غيبة خطاب أفندى ، فمن الناس من زعم أنه هاجر من الجيزة كلها وعاد ليعيش بقية حياته فى قريته بالمنوفية . ومنهم من ادعى أنه يقضى عقوبة طويلة فى السجن فى قضية فساد . وبالرغم من غموض مصير خطاب أفندى إلا أن المعلم كتكوت بقى محافظا على موقفه الطيب من خطاب أفندى . وكان موقفه هذا بناء على شعور داخلى بأنه حتما سيعود يوما ما إلى الواجهة ، وأن لياليه فى قهوة كتكوت ستعود بالتأكيد طالما بقى خطاب أفندى على قيد الحياة .

ولكن أين اختفى خطاب أفندى ؟ أهاجر إلى قريته أم يقضى أيامه فى السجن أم توفى إلى رحمة الله ؟ ذات صباح جاء إلى قهوة عبد الله عمدة من عمد القرى القريبة من مدينة الجيزة ، وكشف عن سر اختفاء خطاب أفندى . لقد تزوج خطاب أفندى فتاة ريفية عانسا هى شقيقة شيخ قرية متيسر وأحواله المالية على ما يرام . وكان شيخ البلد قد تعرف على خطاب أفندى فى إحدى جولاته فى نطاق نشاط الاتحاد القومى . وتوطدت أواصر الصداقة بين شيخ البلد وخطاب ، وفى إحدى الزيارات التقى صدفة بأخت شيخ البلد . كانت قريبة من عمره ،

ربما فى الخمسين أو تجاوزتها بقليل ، ولكنها بالرغم من ذلك كانت مليحة وصبية إلى جانب أنها كانت وارثة لعشرين فدانا من أجود الأطيان . وعندما عرض خطاب أفندى على شيخ البلد رغبته فى الزواج من أخته زينب ، رحب الشيخ كثيرا ولكنه طلب مهلة لاستشارتها ، وتمت مراسم الزواج سريعا ، وطلب خطاب أفندى نقله من مدينة الجيزة إلى المدرسة التى تقع فى زمام قرية أصهاره . وذاق خطاب أفندى طعم السعادة الحقيقة ربما لأول مرة في حياته . طعم البط المزغط والوز الغارق فى شحمه مما ضاعف من متعة خطاب فى الحياة لدرجة أنه فكر فى الاستقالة من التدريس ليتفرغ لإدارة أعماله والاستمتاع بالحياة ، ولكنه قبل أن يقدم على تنفيذ فكرته وقع حادث من تدبير القدر جعله يصرف النظر عن تنفيذ ما عزم عليه . أقيم في القرية مهرجان سياسى كبير لقيادة الاتحاد الاشتراكى بالمحافظة . وأقام العمدة سرادقا كبيرا لهذه المناسبة . وأقبل جميع عمد ومشايخ البلاد المحيطة لاستقبال أمين الاتحاد الاشتراكى أستاذ الجامعة الذى اكتسب شهرة واسعة قبل أن ينخرط فى العمل السياسى ، ولفت نظر أستاذ الجامعة حركة خطاب أفندى الواسعة وعلاقاته الوثيقة بجميع الحاضرين من عمد وأعيان الريف . وأدهشه خطاب أفندى عندما بدأ يلقى خطابه على الحاضرين ، لغته سليمة ولديه مقدرة فذة على مخاطبة الفلاحين ولم يملك أستاذ الجامعة نفسه فراح يصفق بشدة عندما اختتم خطاب أفندى خطابه ببيت الشعر الشهير : قطط سود ولها ذنب. (لا حول ولا قوة إلا بالله) هكذا هتف أستاذ الجامعة فى سره بعد أن انتهى خطاب أفندى وتساءل بينه وبين نفسه : ولماذا يبتعد هذا النوع عن العمل السياسى ، ولماذا لا يوجد رجل مثل خطاب أفندى فى قيادة الاتحاد الاشتراكى بالجيزة ، لابد أن هناك خللا فى تركيبة التنظيم ولابد من إعادة النظر فى هيكل التنظيم لكى يقترب أمثال خطاب أفندى من الصفوف . وبعد أيام كان خطاب أفندى يشق طريقه

بصحبة صهره شيخ البلد إلى مدينة الجيزة لمقابلة أمين الاتحاد الاشتراكى ولكنه لم يشأ أن يذهب إليه مباشرة ، قصد أولا قهوة كتكوت ليستريح قليلا ويشرب كوبا من الشاى . ولكى يبشر المعلم كتكوت بعودته إلى سابق عهده ، ويطمئنه بأن الأحوال ستعود كما كانت ، وربما أفضل مما كانت .

شعر المعلم كتكوت بالزهو لأن تنبؤاته كلها كانت هذه المرة صحيحة وهاهو ذا خطاب أفندى بلحمه وشحمه يسعى بقدمه إلى مكانه الذى شغله فى كل الأحوال وغدا ستضاء الأنوار حتى الفجر فى قهوة كتكوت ، ستزدحم عن آخرها بروادها من العمد والأعيان ومن الفلاحين أصحاب الحاجات : وكان الولد ريعو أكثر الجميع حركة وأشدهم سرورا . أشرف بنفسه على إعداد الشاى الكشرى لخطاب أفندى وضيوفه . وقضى وقتا طويلا فى تنظيف الشيشة قبل أن يقوم بتقديمها إلى صهر خطاب أفندى ، ورفض المعلم كتكوت تقاضى ثمن المشروبات . واعتبر وجود خطاب أفندى فى القهوة هو جائزته التى لا تقدر بثمن ، حتى الولد ريعو رفض الجنيه الورق الذى قدمه شيخ البلد له على سبيل البقشيش . وشعر خطاب أفندى بالارتياح ، وأفرز هذا الاستقبال الحافل من جانب المعلم كتكوت وريعو نوعا من التفاؤل فى نفس خطاب أفندى . لابد أن الحياة ستبتسم أخيرا لخطاب أفندى ولابد أن الاتحاد الاشتراكى سيكون مختلفا عما سبقه من تنظيمات أو بالتأكيد لن يلقى نفس المصير الذى لقيه ما سبقه من تنظيمات . والغد سيكون يوما آخر ، عندما يجلس خطاب أفندى مع أستاذ الجامعة .. ليتفقا على أسس التعاون بينهما فى قادم الأعوام .

٥ الطيور المهاجرة !

عادت الأيام الحلوة من تانى وعاد خطاب أفندى إلى الواجهة ولكن فى ثوب قشيب .. خطاب أفندى لم يعد هو الأفندى الجربان المقشف الذى عرفه الناس من قبل . ولكنه صار من الأعيان يملك أرضا فى ريف الجيزة ، وله أصهار يأكلون اللحمة نية ، وهو لم يعد مجرد رقم فى حزب السلطة ، ولكنه أصبح دينامو مكتب الاتحاد الاشتراكى فى الجيزة وأمين المكتب رجل مثقف وأستاذ جامعى ولكن حركته بطيئة ، وعلاقته بالجماهير محدودة ، وهو يجيد التفكير ووضع البرامج ولكنه لا يجيد حشد الجماهير أو تحريكها ، وأصبح خطاب أفندى هو المسئول الحقيقى فى المكتب ، فهو همزة الوصل بين مكتب القسم ، وأمين المحافظة وهو فى أحيان كثيرة يجتمع مع أمين التنظيم مندوبا لأمين القسم، وأحيانا يكلفه كبار المسئولين بمهام لا يعرف أمين القسم عنها شيئا .

اطمأن خطاب أفندى للمستقبل أما الحاضر فالحمد لله الحمد لله ، لم يعد خطاب أفندى فى حاجة إلى الفردة التي كان يفرضها على المعلم كتكوت . وانقلب الحال فأصبح يغدق بشدة على « الوله ريعو » وأصبح المعلم كتكوت يبدى الاحترام الكامل لخطاب أفندى ، وهو احترام نابع من قلب المعلم بسبب سلوك خطاب أفندى فى الفترة الأخيرة ، لقد أصاب التغيير خطاب أفندى ، فأصبح يخدم الناس بدون

مقابل ، وأصبح يقيم الولائم بين الحين والآخر .

تبدلت الأحوال فى عصر الاتحاد الاشتراكى ، فلم يعد خطاب أفندى فى حاجة لأن يمد يده انتظارا لمبلغ من هنا ومبلغ من هناك. لقد فتحها الله عليه من واسع . استطاع باتصالاتـه الجديدة أن يحصل على توكيل شركة الدخان والسجاير فى المركز الذى يقيم فيه أصهاره . وخطاب أفندى ليس من الغباء لكى يحصل على التوكيل باسمه ، لقد حصل عليه باسم شقيق زوجته وهو مزارع نشيط ورجل طيب مشهود له فى جميع الأوساط وكان الدخل الذى يحققه التوكيل يكفى خطاب للانفاق على أسرته ، بالإضافة إلى مدخرات تكفى لشراء قطعة أرض جديدة يضيفها إلى أملاكه التى رفعته إلى مصاف كبار ملاك الريف . الاتحاد الاشتراكى هو أفضل تنظيم ثورى شهدته مصر منذ فترة طويلة ، وحظ الاتحاد الاشتراكى حسن لأن أقطابه اهتدوا إلى خطاب أفندى ليكون لسان حال الاتحاد الاشتراكى وترجمانه فى بلاط الشعب المصرى ، وبالرغم من اطمئنان خطاب أفندى للمستقبل ، وشعوره بالراحة للحاضر ، إلا أنه كان يعانى من قلق لا يعرف مصدره لأن تجارب خطاب أفندى فى الحياة أكدت له صحة الحكمة التى نطق بها الشاعر :

لكل شىء إذا ما تم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش إنسان

هى الحياة كما عهدتها دول ... من سره زمن ساءته أزمان !

واستعاذ خطاب أفندى بالله من تقلب الأيام وغدر الزمان ، وحاول جاهدا أن يبعد عن نفسه شر هذه الوساوس ، ولكن شكوك خطاب أفندى تحولت إلى حقائق أكدتها بعض الشواهد الخطيرة ، اكتشف خطاب أفندى أن هناك لقاءات سرية يعقدها أمين القسم فى مكتبه بعد انتهاء العمل فى المكتب وانصراف الموظفين ، وتعمد خطاب أفندى أن ينصرف مبكرا لشأن من شئونه فى قريته البعيدة ، ولكنه لم يذهب إلى القرية ، وقضى بعض الوقت فى قهوة كتكوت ، عاد بعدها إلى المكتب

ليجد طابورا من السيارات أمام المكتب ، ودخل خطاب أفندى مسرعا وفتح باب مكتب الأمين ، ويالهول ما رآه . عشرة أشخاص على الأقل بينهم أساتذة جامعة وفلاح وعامل وأحد الشباب الذين كانوا يترددون على المكتب بين الحين والآخر . ولكن كل هؤلاء « كوم » ومحمد أفندى عبده « كوم » آخر « ياداهية دقى يا جدعان » محمد عبده بين المجتمعين .

ومن هو محمد عبده ، إنه ولد صايع يعمل موظف قشرة فى مصلحة الزراعة ، وهو عدو من أعداء الثورة المباركة ، كان فى تنظيم شيوعى متطرف وقضى عدة سنوات فى نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات فى سجن الواحات ، وتردد على المعتقل بعض الأوقات وكان لا يخفى عداءه للثورة ورجالها الميامين . وقبل الثورة كان عدوا للحزب السعدى وكان يطلق عليه حزب الأغلبية ، وكم من المعارك نشبت بينه وبين خطاب أفندى من قبل . ما الذى جاء بمحمد عبده إلى هنا ؟ وما هى الرابطة التى تربط هذا المحمد عبده بهؤلاء الأساتذة الأجلاء اضطرب أمين المكتب عندما اقتحم خطاب أفندى خلوته مع أصدقائه . وسأل خطاب أفندى فى صوت يشوبه الخجل انت مش كنت مسافر ؟ إيه اللى رجعك تانى ؟ واعتذر خطاب أفندى وتعلل بأنه نسى أوراقا هامة على مكتبه ، وأنه عاد ليأخذها معه ولكنه فوجىء بطابور السيارات أمام المكتب فتوقع أن يكون حادثا خطيرا قد وقع . ولذلك جاء يستفسر من سيادة الأمين عن حقيقة الأمر . ودعاه السيد الأمين إلى الجلوس وراح يشرح له الأمر قائلا : الناس دول يا سيدى مش عاجبهم شغلنا قدموا شكوى ضدنا فى الأمانة العامة، وفوجئنا بهم جايين المكتب فأردت أن أوضح لهم حقيقة موقفنا ، والحمد لله إنك رجعت تانى . وأشار أمين المكتب إلى خطاب أفندى وقال للمجتمعين ، عندكو خطاب أفندى مثلا شايل هم المكتب وشغال ليل ونهار وبدون مقابل إلا الرغبة المشبوبة فى خدمة الجماهير . ورد خطاب أفندى على

استحـياء . كله بفضل توجيهـات السيد الأمين انفض الاجتـماع وخرج الجميع وذهب خطاب أفندى إلى قهوة كتكوت وجلس ساهما يفكر فيما رآه بعـينيه فى مكتب الأمـين . إنه لم يصـدق حرفـا واحدا مـما قـاله الأمـين، ولكن ما هـى حقـيقـة الأمـر ؟ وما الذى جـمع الشـامى على المغربى فى هذا الاجتمـاع المريب ؟ وقضـى خطاب أفندى عدة أسابيع بعـد ذلك يراقب مكتب الأمـين ، وكـان ينصـرف أحيـانا ثم يعـود إلى المكتب فجأة ، ولكنه لم يضبط أى اجـتماع فى المكتب بعد ذلك ، وبعد فترة كـاد فيها خطاب أفندى أن ينسى ما حـدث فى تلك الليلة ، غير أن الولد ريعـو جاءه بخـبر أشـعل النار من جديد فى قلب خطاب ، أبلـغه الولد ريعـو أنه رأى رئيسـه أسـتـاذ الجامـعـة مع جمـاعـة من الناس يترددون على بيت محمد عبده . يا خـبر أسود ومدهون بالنيلة . السيد الأمين بذات نـفسه ومـعه عـدد آخر من الناس يذهبـون لزيارة محـمد عبده، هذه من علامات الآخرة ورب الكعـبة . وكان الأمين ومن معه قد اتخـذوا قرارا بعـد اقتـحـام خطاب أفندى لمكتب الأمـين ، أن يعقـدوا اجتماعاتهم فى بيت أحدهم ، ولما كان بيت محمد عبده يقوم فى منطقة على حـافة المـزارع فى نهـاية العـمران بالجـيـزة ، فقـد قـرروا عقـد اجتماعات (التنظيم الطليعى) هناك . ولم يُضـع خطاب أفندى وقتا فى اكتشاف حـقيقة الأمر . ولما كان الولد ريعـو يسكن حجرة على سطح منزل مـجاور لبـيت محمـد عبـده . فقـد اتفق مع ريعو على أن يـتردد أحـيـانا إلى حـجـرته لأمر هـام . ورحب ريعـو بالفكرة . ولكن ريعـو للأسف لا يكون فى المنـزل غالبـا فى الأوقـات التى تعقـد فـيهـا هذه الاجـتمـاعـات . وقـال خطاب أفندى لريعـو وهو يدس فى يده بأوراق نقدية ، ولا يـهمك .. أنا هابقى أخذ الـمفتـاح واروح هناك اقعـد شوية لوحدى إذا ما كانش عندك مانع ، ورد ريعو . اسـتغفر الله يا أستاذ ، دا بيتك ومطرحك ولو أنه مش أد المقام . ونفذ خطاب أفندى مشروعه فى اليوم التـالى مباشـرة . ومضت عدة أيام لم يحـدث فيها جـديد ، حتى

كانت الليلة الموعودة ، عندما بدأ الاجتماع المشبوه ، حضر نفس الأشخاص الذين رآهم خطاب أفندى فى مكتب الأمين تلك الليلة ، وحضر الأمين على قدميه ممسكا فى يده بشنطة تحوى أوراقا . يا داهية دقى يا ناس .. نفس الأشخاص ونفس الوجوه . ما الذى جعل هؤلاء السادة يجتمعون فى مثل هذا المكان ؟ ولماذا يختفون عن الأنظار ؟ لقد تحققت شكوكه أخيرا ، وهذا الأمين أستاذ الجامعة شيوعى بدون شك . إنها مؤامرة ضد الثورة المباركة ، والولد الصايع محمد عبده سيصبح يوما ما حاكما للجيزة ، مفيش كلام ! وراح خطاب أفندى يستعرض علاقته مع أستاذ الجامعة أمين قسم الجيزة أخيرا أدرك خطاب معنى هذه الكلمات التى كانت تتردد فى حديث الأستاذ .. المد الشعبى والتنظيم الثورى ، وأصحاب الياقات البيضاء ، ومن كل حسب طاقته ولكل حسب حاجته .

إنه شيوعى هو الآخر مثل محمد عبده ، ولكن ما الذى ينقصه لكى يتحول إلى شيوعى ؟ المسألة طبيعية مع محمد عبده ، فهو جربان وشقى وتعيس ، ولكن الأستاذ .. هذا هو الأمر العجيب ! هل يقف خطاب أفندى مكتوف اليدين أمام هذا الخطر الداهم ؟ وخصوصا أن المسألة تخص خطاب أكثر من أى أحد آخر . لو انتصرت الشيوعية فسيموت خطاب فى السجن بالتأكيد يا لها من مشكلة رهيبة ولابد من حلها بسرعة قبل أن تقع الفاس فى الراس . لم يتوان خطاب أفندى عن العمل بسرعة فتوجه ذات ليلة إلى قسم الشرطة واجتمع بعض الوقت مع ضابط المباحث وقص عليه بالتفصيل ما رآه بعينيه فى مكتب الأمين. وفى بيت محمد عبده . وحرص على أن يذكر للضابط أن الدكتور أستاذ الجامعة رجل فاضل ولكنه شيوعى بالتأكيد . ولابد من الإسراع فى مواجهة هذا الأمر الخطير . ومن أجل التأكد بأن الأمور تسير فى الطريق الصحيح ، حرص خطاب أفندى على البقاء فى حجرة ريعو وقتا أطول على الأقل لكى يسعد نفسه بمنظر القبض على هذه

الفئة الضالة التى تخطط لإشعال النار فى الوطن وكان يتواجد أحيانا فى بيت ريعو أثناء وجود الأخير فيه ، وأحيانا يتواجد فيه بمفرده . ولما لاحظ ريعو قلق الأستاذ وعصبيته نصحه بأن يشد نفسين من سيجارة ملغومة لكى يريح أعصابه ويريح مخه الذى أرهقه التفكير . وشعر خطاب أفندى بأن السيجارة لها مفعول السحر فى نفسه ، فراح يطلب منها المزيد ، وكان ريعو فى الخدمة بأسلوب اطبخى يا جارية كلف يا سيدى ! ولم يتردد خطاب أفندى فى تغطية كل التكاليف . وذات مساء وقعت عينا خطاب على بنت صبية فى السادسة عشرة من عمرها تقيم مع أسرتها الفقيرة فى حجرة مجاورة لحجرة ريعو . كانت البنت رغم فقرها تبدو مليحة وناضجة ، صدرها يترجرج فى حركة مرسومة كأنه من وضع مخرج. وشفتاها مكتنزتان يتوسطهما شق يحرك شهية العابد العاكف المعتزل للحياة . واستبدت الرغبة بخطاب أفندى فنادى على البنت وهى فى طريقها للخروج وتوسل إليها فى أدب مبالغ أن تشترى له علبه سجاير، وعندما عادت شكرها بشدة وأعطى لها فكة الجنيه ، ولكن البنت استكثرت المبلغ وأصرت على إرجاعه فأطبق خطاب على كفها بكفه وأقسم بكل المقدسات أن تحتفظ بالمبلغ هدية متواضعة من عمها خطاب ، لم يشعر خطاب أفندى فى حياته بهذا الشعور الذى أحس به فى اللحظات القليلة التى أطبق فيها بأصابعه على كف البنت الصغيرة . واستبدت الدهشة بخطاب أفندى لهذا الشعور اللذيذ الذى لم يشعر به فى أى وقت ، وخصوصا أن خطاب أفندى لم يكن له أية مغامرات من هذا النوع . وأصبح من عادة خطاب أفندى كلما رأى البنت أن يكلفها بشراء أشياء له من الخارج ، ويحرص على أن يترك لها الباقى هدية متواضعة منه لخدماتها الجليلة، ولاحظ خطاب أفندى أن البنت أصبحت وهى فى طريقها للخارج تحرص على أن تسأل خطاب أفندى إذا كان يرغب فى شراء شىء من الخارج ، ثم صارت تتحدث معه وقتا أطول . وضاعف خطاب أفندى

من هداياه للبنت . حتى كـان يوم جاءت إليه الأم تسـأله إذا كان يرغب فى تنظيف الحجرة أو غسيل ملابسه ، فهو رجل كريم يستحق الخدمة التى هو أهل لهـا بكل تأكيـد . وذات صباح جـاءت الأم ومعهـا البنت ، واسـتـأذنت خطاب أفـندى فى أن يسـمح لشـربات بأن تـقـوم بكنس الحجرة التى يبدو أنها لم تكنس منذ عدة شهور .

ودخلت شـربات الحجـرة ترتدى جلبابا مـمزقـا مفـتوح الصـدر ، وراحت تكنس الحجرة وهى منحنية فى حركة مـتعمدة لإبراز مفاتنها ، ولم يتمـالك خطاب أفندى نفسه فـاحتضن البنت فى رفق ومـسح بيده على شعرها ثم انحنى وطبع على خدها قبلة .

لم تقبل البنـت هذا السلوك ولم ترفضه . ولكنهـا تململت فى دلع ، وتركت المكنسة وانطلقت من الحجرة نافرة وراضية فى الوقت نفسه ، واضطرب خطاب بشـدة وخـاف من عواقب فـعلتـه ، وبالرغم من ذلك شعر بأنه يكاد يـطير من السرور . أخطر ما شعـر به هو الرائحة التى نفذت إلى خيـاشيمه وتسللت إلى أعـماق روحه رائحة البنت الصـبية . إنهـا رائحة تخـتلف عن الروائح التى جـربهـا من قبـل مع غيـرها من النسـاء يبدو أن للشـباب رائـحة خـاصة لا يعـرفهـا إلا مجـرب . ولم يستطع خطاب أفندى أن يبـقى فى الحجرة فغـادرها مسرعا إلـى قهوة كتكوت .

وأيام طويلة وكثيرة مرت دون أن يقع ما كان ينتظره خطاب أفندى، لم يقبض عـلى أحد بينما الاجـتمـاعات تتكرر فى منزل مـحمد عـبده . تصبح مـصيبة كـبرى لو أن ضابط المـباحث متـواطىء هو الآخر مع الشيوعيين ، ولكن هذا الضابط الصـغير ربما ليس فى دائرة اهتماماته أمـر خطير على هـذا المسـتوى . إنه مـجـرد ضابط مـبـاحث يتعـقب النشـالين واللصـوص والبلطجيـة وباعـة المخـدرات ، وخطف خطاب أفندى رجله إلى مكـتب المبـاحث العـامـة. وحكى للمـفـتش كل شىء بالتفصيل . الكارثة الكبرى أن المفتش استمع إلى تفاصيل المؤامرة فى

هدوء . وقال لخطاب : سنبحث الأمر فى هدوء وعلى مهل ، ونصح خطاب أفندى بعدم الثرثرة فى هذا الأمر مع أحد . وأضاف بأن هناك أشياء تحدث قد يخطىء الإنسان فى تفسيرها ، ولذلك يجب ضبط الأعصاب والتصرف بحكمة بالغة ، يا خبر زى الزفت ، يبدو أن البلد كلها تحولت إلى الشيوعية والمستقبل مجهول والمصير أسود من قرون الخروب ! ولكن خطاب أفندى لن يهدأ ولن يكل . ثرثر بما يعرفه لصهره فى القرية ثم عاود الثرثرة مع المعلم كتكوت والولد ريعو .

ثم راح يثرثر مع كل الناس . لقد نذر نفسه لمحاربة الشيوعية حتى النفس الأخير .

وانتشرت حكاية الشيوعية التى أشاعها خطاب أفندى . وواصل مراقبته لبيت محمد عبده ورصد الاجتماعات وكتابة تقارير عنها راح يرسلها إلى الأمين العام وأمين التنظيم ووزير الداخلية ، وأصبح يقضى وقتا أطول فى حجرة ريعو . ويا هناه عندما اكتشف أن البنت شربات لم تكشف سره ولم تفضحه ، وتجرأ أكثر ، حتى جاء يوم وهو مستلق فوق الكنبة التى يستخدمها ريعو كسرير ، عندما دخلت البنت شربات لترتيب الحجرة ، ولكنه طلب منها أن تعد له كوبا من الشاى .

وعندما فرغت من إعداد الشاى ، نام على بطنه وطلب منها تدليك ظهره لأنه يشعر بأن البرد ينام فى ضلوعه ويكاد يمزق عضلاته ، وراحت البنت تدلك عضلات خطاب أفندى ، ولكنه جذبها فجأة واحتضنها بشدة . وكاد يطير من الفرح عندما وجد استجابة من شربات وسرورا بالغا بالخطوة الجديدة .

وأصبحت عادة عن خطاب أفندى ، أن يشترى الكباب والعيش والسلطة ويذهب إلى حجرة ريعو ليتناول طعام الغداء مع شربات. ثم يقضى معها وقتا طيبا قبل أن يغادر الحجرة بعد المغرب . ثم يقوم بعد ذلك بجولته المعتادة فى مكافحة الشيوعية والضرب بشدة على أيدى الشيوعيين ، لأنه لا يضيع حق وراءه مطالب .

فقد تلقى استدعاء من أمين التنظيم أخيرا نجحت حملته وستبدأ حركة التطهير لوضع الأمور فى نصابها . عندما جلس فى مواجهة أمين التنظيم اكتشف أن الأمر لم يكن كما توهم ، عاتبه الرجل على خروجه على تقاليد العمل الحزبى ، وأنه ارتكب جريمة التشنيع على حزب الدولة . وراح خطاب أفندى يشرح لأمين التنظيم مدى الخطر الذى تتعرض له مصر على يد بعض أبنائها الذين كرمتهم الدولة ورفعتهم إلى المناصب الكبرى ، كما هو الحال مع أمين التنظيم بالجيزة. دكتور الجامعة واتهم محمد عبده بأنه سوسة تنخر فى قوائم النظام لهدمه من أساسه واضطر أمين التنظيم إلى زجر خطاب أفندى بشدة ووصف حركته بأنها جنون ينبغى كبحه ، وهدده بطريق غير مباشر بالعواقب الوخيمة لسلوكه الذى لا يمكن قبوله . وخرج خطاب أفندى من مكتب أمين التنظيم وقد تأكد أن المؤامرة متشعبة وأن مصر محاصرة وأنها فى الطريق إلى الشيوعية ، ولأن المصائب لا تجىء فرادى ، فقد تلقى خطاب أفندى صفعه أخرى بإلغاء انتدابه من الاتحاد الاشتراكى . ولكنه رفض العودة إلى التدريس وتفرغ تماما لعلاقته الجديدة بشربات ، وللوقوف فى وجه المؤامرة الشيوعية ! وحاول بعض أصدقائه من العارفين ببواطن الأمور توضيح الصورة له دون جدوى . شبح المؤامرة كان مسيطرا عليه . ووجود محمد عبده هو الدليل على أن مصر مستهدفة وأن المصير مظلم بلا شك ، واتسعت حركة خطاب أفندى فراح يقوم بزيارات للقرى المجاورة ويحذر من الانقلاب الشيوعى القادم . ثم جاء يوم أسود هز كيان خطاب وكاد يصيبه بالجنون . جاءته أم شربات أثناء تناوله الغداء مع شربات وجلست أمامه حزينة وأبلغته فيما يشبه الإنذار بأن عليه أن يقوم بتصحيح غلطته ، أن يتزوج شربات أو يواجه الحساب أمام الشرطة وفى المحاكم . ولكن خطاب أفندى تلقى الإنذار باستهانة شديدة واتهم الأم بمحاولة ابتزازه ، وأنذرها بأنه رجل مسئول ويعرف كيف يحمى

نفسه ، وهددها بمصير مظلم إذا خطت خطوة واحدة ضده ، وانقطع عن التردد على حجرة ريعو ، واتفق مع ريعو على إنكار أى تردد له على حجرته وسلمه المفتاح الذى كان فى حوزته . ولما كان انقطاع خطاب أفندى عن زيارة حجرة ريعو ، ذهبت الأم إلى ضابط المباحث وتقدمت بشكوى تتهم فيها خطاب أفندى بالاعتداء على ابنتها القاصر شربات! وكانت فضيحة بجلاجل انتهت بحبس خطاب أفندى أربعة أيام ثم أفرجوا عنه بكفالة وأصر خطاب على أن الاتهام باطل ، وأنه مجرد رد فعل لاكتشافه المؤامرة الشيوعية التى تستهدف مصر بعلم كبار المسئولين .

ولكن إذا كان خطاب أفندى قد أصبح خارج الأسوار ، فقد واجه محنة أشد من محنة السجن . رفض أصهاره أن يستقبلوه وهددوه بأوخم العواقب إذا اقترب من حدود القرية . واكتشف خطاب أفندى أنه اشترى الترام ، لأن كل أملاكه التى اشتراها فى زمام القرية كانت باسم السيدة حرمه ، ولما كانت الزوجة من عائلة لها شوكة قوية ، فقد آثر الصمت وبادر إلى طلاق زوجته طلبا للأمان وعندما فاتح ريعو بأن يستأجر غرفة أخرى بعيدا عن بيت شربات يسدد أجرها من جيبه ويسكنها ريعو بلا مقابل ، رفض ريعو لأن المعلم حذره من إقامة أية علاقة مع خطاب ، وقهوة كتكوت طبعا ليس لديها استعداد لاستقباله بأى حال من الأحوال . حتى توكيل شركة السجائر كان باسم صهره ، وعندما حاول إلغاءه وجد صدا شديدا ، وحتى مدير شركة السجائر رد عليه فى التليفون من طراطيف أنفه وعامله باحتقار ، واضطر إلى إنهاء المكالمة بحجة أنه مشغول بشدة وهكذا سدت جميع الأبواب أمام خطاب أفندى فانسحب فى هدوء وغادر القاهرة كلها وودع الجيزة وذهب إلى شبرا الخيمة واختفى هناك عند أحد الأصدقاء .

وقبل موعد محاكمة خطاب بأيام قلائل ، انقلبت أوضاع الدولة وتم إعلان ثورة مايو ، وذهب جميع المسئولين السابقين إلى السجن .

وأعيدت قضية خطاب مع شربات إلى النيابة من جديد. لإعادة التحقيق فيها . وانتهت إلى الحفظ وعاد خطاب إلى الجيزة ظافرا ، ولم تمض سوى أيام قليلة ، حتى صدر قرار بحل الاتحاد الاشتراكى وإعادة تشكيله من السفح إلى القمة ، وانتهت عملية تطهير الصفوف من الخونة ، وصدر قرار بتعيين خطاب أفندى أمينا لفرع الجيزة فى الوقت الى غاب فيه أستاذ الجامعة ومحمد عبده وزملاؤهما خلف الأسوار وخرجت جرائد الصباح فى اليوم التالى بعناوين ضخمة «عودة الطيور المهاجرة » وصورة خطاب أفندى تتصدر الصفحات وفى المساء اشتعلت قهوة كتكوت بأضواء الكهرباء ورفعت اللافتات بشعارات الترحيب بعودة المناضل خطاب حتى عقد توكيل شركة الدخان تم إلغاؤه وأعيد تحريره باسم خطاب .. هكذا علنا وبالمكشوف .. فهذا عصر الحرية وسقوط عهد الخوف .. وفى تلك الليلة التى احتفلت فيها قهوة كتكوت بعودة الطيور المهاجرة . رقص المعلم كتكوت حتى الصباح ولكن خطاب أفندى لم يشرف الحفل ، واكتفى بإيفاد مندوب عنه لشكر المعلم كتكوت ومع الشكر مظروف يحوى بعض المال .

٦ حميدو ..

كان واحدا من أشهر أهالى الجيزة بالرغم من تواضع نشأته ووضاعة مهنته. فقد قيل إن والده كان شيالا بمحطة أتوبيسات كافورى بميدان الجيزة، ولما فشل فى توفير القوت الضرورى لولده الوحيد قام بتسليمه إلى ملجأ البنين بالجيزة، ولكنهم رحلوه بعد فترة إلى إصلاحية الأحداث لأن الملجأ خاص بالأيتام فقط ولا مكان فيه لغيرهم!

وعندما خرج حميدو من الإصلاحية كان قد أصبح شابا ولم يجد مكانا يتجه إليه إلا محطة أتوبيسات كافورى فى المكان الذى قضى فيه والده أغلب فترات حياته، قبل أن يموت فجأة وهو واقف على الرصيف. ولكن مهنة الوالد لم ترق لحميدو، فاشترى صندوقا صغيرا واستقر به الحال فى قهوة كتكوت يمسح أحذية المترددين على القهوة من العمد والأعيان وتجار القطن وجماعة الأدباء. ولأنه كان صاحب تجربة مريرة فقد كان يبدى للزبائن مزيدا من الأدب الزائف والخضوع الشديد. مما دفع بعض الزبائن إلى تكليفه بمهام أخرى غير مسح الحذاء. بعضهم كان يعهد إليه بتنظيف الشقة، والبعض الآخر كان يبعث به لشراء أدوية من الأجزخانة أو بضاعة من السوق وكان من الممكن أن تنحصر شهرة حميدو فى نطاق قهوة كتكوت لولا أن رجلا يهوديا كان يدير ستديو سينما على بعد خطوات من قهوة كتكوت،

وكان يستـعين بأفراد من أهل الجيزة للقيـام بأدوار الكومبارس، وفى فيلم على بابا والأربعين حرامى أصاب الحظ حميدو فظهر فى دور أحد الحراميـة الذين اختفوا داخل «الزلع» الموجودة فى مـغارة الكنز وكان دور حـميـدو يتلخص فى الدخـول فى الزلعة، وعنـدما يأتى العـسكر، يفتحون الزلع واحدة وراء الأخـرى، فإذا برز منها رأس أحد اللصوص ضربه العسكرى على رأسه فيرتمى الحرامى داخل الزلعة، ولكن ضربة حظ اصـابت حـميـدو، فكان دوره يقـضى بأن يبـرز رأســه من داخل الزلعـة فيـضربه العـسكرى ويرتمى داخل الزلعـة ثم يعود رأســه إلى البروز مرة أخـرى فيضربه العسكرى مـرة أخرى فيعود إلى الاخـتفاء دون أن يعود مرة أخـرى للظهور. وبعد غرض الفيلم صار حـميدو من نجوم الجيزة حميدو راح حميـدو حضر ولما كان حميدو هو بطل طلبة وتلاميـذ مدارس الجيـزة فقد فكر بعـضـهم فى استـخدام حمـيدو بدل محـمد فى كتاب المـطالعة، فيقـال زرع حميـدو وحصد حمـيدو وأكل حمـيدو وضرب حـميدو إلى آخـر رحلة حمـيدو فى الحيـاة. واتسعت شـهرة حـميـدو أكثـر عندما ظهـر فى فـيلم أميـر الانتقـام وفى دور كومبارس صامت ولكنه كان دورا يستحق الاحترام فقد امتطى صهوة حصـان وارتدى زى فارس مـغوار واشتـرك فى المعارك الـتى نشبت تحت قيادة أمـير الانتقام. ولكن ضـربة حميدو الكبرى كـانت فى فيلم عريس من اسطنبول، فـقد ظهر فى دور خادم فى سـرايا الباشا وتكلم فى هذا الدور عدة كلمات، وانتقل بذلك من مرتبة كومبارس صامت إلى كومبـارس متكلم، واعتبـر حميدو هذه النقلة خطوة واسـعة على طريق النجومية شأنه شأن أنور وجـدى ومحسن سرحان وبالفعل أثرت هذه التطورات على مـهنة حمـيدو الأصليـة، فاعـتزل مـهنة مسح الأحـذية واحتـفظ بالصندوق فى الوقت نفـسه، واستـعان بشـاب عاطل للقـيام بمسح الأحـذية لقاء نسبـة معينة من الـدخل وتفرغ هو لأعمـاله الفنية التى اتسعت فـشملت المســرح أيضا. وكان يـوسف بك وهبى يعرض

مسرحياته كل صيف على مسـرح شهرزاد بالجيزة والذى تقوم مكانه الآن سينما شهرزاد الصيفى فى مواجهة كوبرى عباس، وتمكن حميدو من الالتحاق بدور كومبارس فى مسرحية أولاد الشوارع وعندما وجد حمـيدو نفـسه على المسرح أمـام الجمهـور ومن بينهم بعض أعـيان الجيزة الذين يعرفـونه ويعرفهم، فكر فى قطع خطوة أوسع على طريق المـجد فـقرر أن يـشارك فى التـمثـيل بالكلام مع أن دوره كـان دورا صـامتا فى ثياب متسول يفترش الرصيف.

وبالفعل ألقى حميـدو خطبة مقتبسا إياها من مقتطـفات مختلفة من أدوار يوسف بك وهبى نفـســه فى عديد من المـسـرحيـات ولما كـان يوسف بك وهبى يقف على خشبة المسرح فى تلك اللحظة فقد استبدت به الدهشة وتصـور أنه معتوه أو مـخبول، وتأكد من ذلك عندمـا أمره بالصمت فلم يصمت بل واصل الخطابة بطريـقة يوسف بك وهبى، مما اضطر يوسف بك وهبى إلى ضـربه بالشلوت ضـربة قـوية أطاحت به من فوق الخشبـة على كراسى المتفرجين وسببت هذه الحادثة مشكلة فى الجيـزة. فقد انتـشر الخبر وذاع فى أنحـاء الجيزة بعـد أن نشرته مجلة فنية واسعة الانتشار ممـا دفع بحميدو إلى الدفاع عن نفسه بأن ما حـدث كان نتـيجـة مؤامرة من جـانب يوسف بك وهبى لأن تمـثيل حمـيدو على المسـرح كشف يوسف بك وهبى وأظهره كـمجرد مـمثل عادى إلـى جانب حمـيدو الذى سـيطر على المـتفرجـين ودفعـهم إلى التصفيق له بشدة لمدة عدة دقائق.. ولم يكن أمام يوسف بك وهبى إلا ضـربه بالشلوت لكى يقطـع هذا السبـاق بينه وبيـن حمـيـدو الذى لو استمر لكانت النتيجة فى صالح حميدو بالتأكيد وراح حميدو يردد فى مجـالسه الخاصة وبين زبائن قـهوة كتكوت. واقـتنع بعض الناس بما كان يردده حـميـدو لدرجة أن المـعلم كتكوت عـرض على حمـيدو أن يستـأجر منه بوفيـه المسرح وقـد وافق حميدو عـلى الفور فطلب من المعلم كتكوت سلفـة تخصم من الإيجار فيما بعـد ولكن مضت شهور

طويلة وسنوات أيضـا دون أن ينفذ حـميـدو شيـئا من أحـلامه، وزاد الطين بلة أن أفـلام السيـنما التى كـانت تنتج فى اسـتوديو مـزراحى المواجـه لقهوة كـتكوت أصبحت قليلة، وانخـفضت أجور الكومـبارس بسبب حرب ٤٨ فى فلسطين والقت الأحوال السيـئة ظلها على حميدو، وبدأ يعانى من وقف الحـال مما اضطره فى النهاية إلى العـودة لمهنته القديمـة وقام بتـسريح الشاب الذى اسـتأجره للقـيام بمـسح الأحذية وراح حميدو نفسه يمارس عمليـة تلميع الأحذية بنفسه وكان إذا سأله أحدهم عن سـر عودته إلى مهنتـه القديمة برر ذلك بأن مـسح الأحذية أشـرف من إجـباره على تـمثـيل الأدوار التى تعـرض عليـه وزعم أن المخرج مـحمد كريم عـرض عليه دور فؤاد فى أحد المـواضيـع ولكنه يفـضل الجوع على الـقيـام بمثل هـذه الأدوار. ولما كـانت الأمور قـد تدهورت إلى هذا الحد مع حـميدو فقد آثر الاختـفاء بعض الوقت ولغط الناس بأنه سافر إلى فلسطين، وقال آخـرون إنه ذهب إلى الإسماعيلية للعمل فى مـعسكرات القناة المهم أن غـيبة حـميدو لم تستـمر طويلا، سرعان ما ظهر من جديد فى قـهوة كتكوت، ولكنه عاد هذه المرة ببدلة وعلى رأسه برنيطة بيـضاء مصنوعـة من القماش. وعرف رواد قـهوة كتكوت من حميـدو نفسه أنه كان فى بورسعيـد، وأنه عمل فى معسكر بحـرى على شـاطىء المـيناء، واكـتشـفـوا أنه ينطق ببـعض الكلمـات الإنجليزية. وبعـد أن قضى اسبوعـا فى القهوة اختفى مـن جديد وعاد إلى بورسعيد وفى هذه المرة امتدت غيبته عاما كاملا، وعندما عاد كان ينفق عن سعة، ويدخن سـجائر فاخرة قال إنه حـصل عليها من النافى الانجليزى بقـروش قليلة وعرف رواد قـهوة كتكوت أنه صـار موضع ثقة القائد الانجليزى وهو ضابط برتبة كابتن، وأنه لا يتخذ أمرا إلا بعد مشاورة حـميدو ومرافقتـه ولكن أكاذيب حميدو انكشـفت كلها، عندما هبط على القـهوة ذات مـساء عدد من الـمخبـرين على رأسهـم ضابط مبـاحث وألقوا القـبض على حميـدو وذهبوا به إلى قـسم الشرطة. ثم

عرف أهل الجيزة أن حميدو قدم للمـحاكمة وأنه أدين في جريمة سرقة المعسكر الانجلـيزى، وحكموا عليه بالسجن لمـدة سنتين. نسى الناس حميدو وسـاعدهم على نسيانه أنه لم يعد إلى الجيـزة بعد خروجه من السجن، ولكنه ذهب مرة أخرى إلى بورسـعيد وقيل أنه تزوج من بنت بورسعيـدية واستقام هناك وعمل مـع أخيها البمـبوطى على قارب فى المـيناء وقيل إنه حـصل على باسبـورت بحرى وأنه سـافر على ظـهر مركب ترفع علم هونج كونج. ولم يظهر له أثر بعد ذلك إلا بعد النكسة، عندما عاد إلى قـهوة كتكوت واستـقر فيها زبونا فـقط بلا عمل من أى نوع ونصحه البـعض بالعودة إلى شغلته القديمـة ماسح أحذية، ولكنه قال بأنه يفكر فى مـستقـبله ولم يستقـر رأيه على عمل معـين بعد. ثم جاء ذات مـساء إلى القهـوة لتوديع المعـلم كتكوت والجرسـون ريعو، وكان مـعه جواز سـفر مـصرى وتذكرة سـفر على الطائرة وتأشـيرة دخول لليونان.

وسافـر بالفعل إلى اليـونان ولكنه غاب عـدة أشهر طويـلة قبل أن يظهـر من جديد، واكـتشف الناس أن البـوليس اعتـقله فى المطار لأن جواز السفر كان مزورا وتأشيرة دخول اليونان أيضا. وكانت آخر مرة وقع فيها بصـرى على حميدو فى إحدى أمسيـات مايو الحارة من عام ١٩٧١.

ولم أره بعد ذلك لعـدة أعوام طويلة، ولكن بسبب غيـابى والحمد لله خلف أسوار السـجن، وعندما خـرجت من السجن اكـتشفت أنـه يعمل تاجر شنطة، وأنه دائـم الترحال بين القـاهرة وبيروت. وغاب العـبد لله عشر سنوات كاملة خـارج مصر، وعندما عدت كان حمـيدو يدير محلا صغـيرا فـى الميـدان يعرض فـيه مـا يهرب به من بضـائع من لبنان. وعندما جـاء ليهنئنى بالعودة كـان يرتدى بدلة صيفى فاخـرة صناعة لبنانية وكرافتـة من الحرير الفاخر، وحذاء إيطاليا، وكان سـعيدا وقلقا على نحو ما، وهمس فى أذن العبد لله بأن السر وراء القلق الذى يستبد

به أنه اقترض عـدة ألوف من الجنيهات من البنك، ثم تعـثر فى السداد، والبنك يهدده برفع الأمر إلى القضـاء. وقيل إن حمسيدو تغير كثيرا وأنه يتردد على المسجد للصلاة فى المواعيد المحددة، وأنه يصوم رمضان، ويؤذن أحيانا لصلاة الـفجر فى المسجد المجـاور للمحل الذى يمتلكه. ثم تأكدت لى هذه الحقـيقة عندما شاهدته ذات مرة على قـهوة كتكوت يجلس مع بعض أصـدقائه، وقـد أطلق لحيـته. يا سـبحـان الله... صار حميدو بين المشايخ كمـا صار شولح بين الأنبياء، مع فارق بسيط هو أن الناس فى غزة تعجبت لدخول شولح بين الأنبياء، ولكن أهل الجيزة لم يندهشوا لدخول حميدو بين المشايخ!

وذات مساء وكـان الجو خريفا وثمة ريح باردة تـهب على الميدان، فوجـئت بحـميدو يـحضر إلـى مجلسى ليس للسـلام، ولكن لمناقـشة مشروع تجارى مضمون الربح، وقال حميدو فى لغة رجل الأعمال :

أنت قضيت عشر سنين بره، وطبعا الشغل بره غير الشغل هنا، وأنا عـارف إنك راجع ومعـاك لا مـؤاخذة قـرشيـن. إيه رأيك إحنا داخلين مشروع تجارى إنمـا سمين قوى، وأنا معايا شركاء جـماعة من مصر بس شغـالين فى الكويت. والشغلانة بسـيطة.. القرشين اللى مـعاك ع القرشـين اللى معانا، وعلـى قرشين من البنك كـمان، وهنعمل شـركة كبيرة لتـوظيف الأموال.. وعلى فكرة.. الجماعة اللى معـايا همه السبب فى العز اللـى عايش فيـه الجمـاعة اللى عندهم شركـات من النوع ده، لأنهم كانوا زملا مع بعض فى الكويت.

وسألته.. وكيف ستقوم بتوظيف الأموال؟ فقال على الفور...

- أنا قـدامى شـغلة عارفـهـا ودارسـها. أنا بدل مـا روح بيـروت لوحـدى، وأجيب مـعايا شنطتـين، هاروح ومـعايا كـام عيل من بتـوع الجامعة دول، ونرجع ومعانا عشـرين شنطة. وهناخد دكان تانى كبير قوى وهنعرض فيه الحاجة، والبضاعة هتمشى زى الإكسبريس، وآخر كل شهر نوزع قرشـين على الناس والباقى فى جيبنا، حاجـة مضمونة

زى الساعة السويسرى.

وسكت فترة قبل أن يقول :

– إيه رأيك ؟

– المســألة دى عاوزة دراسة، ومـاقدرش، أحكم عليـها بالشكل ده وبعدين.

ولكن حميدو قاطعنى فجأة قائلا :

– ماتخافش، خللى قلبك جامد، التجارة تحب الشجاعة. وبقولك دى حاجة مضمونة زى ورقة البوسطة.

وظهر الغضب الشديد على وجه حميدو وعندما قلت له :

– وكـمان أنا مـامعـييش فلوس زى مـا أنت فاهم، وأنا كنت عـاوز أدرس المشروع عشان مصلحتك.

وقال حميدو وهو يهم بالوقوف.

– على كل حال أنا قلتلك عشان مـصلحتك، لكن أنت حر، وأنا عملت اللى على وربنا عـالم، وبينى وبينك ناس كـتير بـتتحـايل على عـشان تشاركنى بس أنا مش ممكن أشارك أى حد، وأنا اللى اخترتك من دون الناس اللى قاعدين ع القهوة.

ومضى حميدو غاضبا، ولم أره مرة أخرى قبل عدة شهور، وكانت، أحواله قد تطورت بشكل خطير.

٧ حميدكو للاستثمار !

عدت إلى الوطن بعد رحلة علاج استغرقت عدة شهور، ولفت نظرى عند ذهابى إلى قهوة كتكوت فى المساء وجود لافتة ضخمة أعلى القهوة تحث المواطنين على المساهمة فى «حميدكو للاستثمار» وحرص أصحاب اللافتة على التأكيد بأن «حميدكو» تحقق أهداف الوطن فى الثورة الزراعية وفى الأمن الغذائى وفى اكتشاف كنوز أرض الفيروز. واكتشفت أن حميدكو هو حميدو نفسه ولكن أضاف «كو» إلى اسمه تمشيا مع النظام العالمى الجديد! وتمنيت أن أعرف مصدر الفلوس التى ساعدت حميدو على إقامة هذا الصرح الاقتصادى الكبير. ومعرفة شركائه فى المؤسسة التى تعمل على تحقيق أهداف الوطن فى كل هذه المشروعات القومية الكبرى. ولم أستطع أن أظفر بأية معلومة ولو ضئيلة من الولد «ريعو» ثم من المعلم كتكوت، كان تعليق ريعو عندما سألته.

– حميدو عبر يا بيه!

أما المعلم كتكوت فكان جوابه :

– يعطى من يشاء بغير حساب.

ولكن «الصدف» وحدها أتاحت للعبد لله فرصة إلقاء نظرة على الحقيقة.

كان مساء باردا ومطيرا مما اضطرنى إلى مغادرة الرصيف والاحتماء من الجو فى داخل القهوة. وما أن دخلت حتى هب أحد

الحاضرين واقفا ضاربا تعظيم سلام بطريقة رجال الأمن. ياقوة الله، عم عبدالهادى!! فين أراضيك؟ وانتحيت به جانبا وجلسنا نتحدث معا. عم عبدالهادى رجل طيب من أهالى الجيزة، عمل فترة من الوقت سائقا بشركة الترام، ثم اضطر إلى التقاعد بعد حادث أدى إلى إصابته بعجز فى ساقه، وترك العمل بعد أن حصل على المكافأة والتعويض، وعلق فاترينة سجاير على أحد الجدران بجوار قهوة كتكوت، ولكنه لم يصبر طويلا على بيع السجاير الفرط، وسرعان ما باع الفاترينة واكتفى بالجلوس على قهوة كتكوت. وكان أحيانا يجلس مع شلة الأدباء على أساس أن بينه وبينهم صلة ما، فقد كان لعم عبدالهادى بنت متمردة خرجت من طوعه، وعملت «كومبارس» فى الأفلام، ولما كانت البنت مليحة وعلى جانب من الجمال فقد استطاعت أن تخرج من دائرة الكومبارس لتؤدى أدوارا ثانوية، وكانت تلعب دور البنت اللعوب بجدارة، مما سمح لأهالى الجيزة بترديد اسمها فى إشاعات عن سلوكها، قد يكون لبعضها أساس فى الحقيقة، أما أغلبها فكانت من نسج خيال العامة والفقراء.. ولما سألت عبدالهادى عن ابنته، روى لى أنها تزوجت منذ فترة من واحد «ريجيسير» وأنجبت منه بنتا، ثم هجرته بعد أن اكتشفت أن الريجيسير إياه لا يستخدم البنات فى أفلام السينما فقط، ولكنه يستخدمهن فى أعمال أخرى شائنة. ولكن عم مهدى اكتشف بعد فترة أن خلاف ابنته مع الريجيسير لم يكن للشرف دخل فيه، وأن الخلاف حول توزيع الأرباح، وبدأت البنت تدير أعمالها بنفسها بعد الطلاق، ولما انكشف أمرها ألقت الشرطة القبض عليها وأرسلتها لمدة ثلاث سنوات خلف القضبان، وماتت زوجة عبدالهادى بعد انتشار الفضيحة، وسلمت ابنته طفلتها لبعض معارفها، ولكنها ماتت بعد فترة، وخرجت البنت من السجن بعد قضاء مدة العقوبة، وباشرت أعمالها على الفور، علمتها التجربة القاسية دروسا جديدة، فلم تعد تبيع نفسها ولكنها راحت تتاجر بالأخريات، أما هى فقد أصبحت تصطاد فرائسها من بين الأثرياء الجدد. وأوقعها حظها فى

الولد حميدو ـ هكذا نطق عم عبدالهادى الاسم ـ ثم قال وهو ينظر للعبدلله :

– فاكر الواد حميدو اللى كان بيمسح الجزم فى القهوة. سبحان الله.. حكمته واسعة، بيمد للظالم، الواد بقى من أصحاب الملايين. إزاى؟ هو ده اللى هيجننى، البنت اشتغلت مع حميدو كام شهر وبعدين اتجوزها. عربيات إيه يا استاذ شقق إيه وشاليهات إيه وسفر بره إيه، حاجات زى اللى بنشوفها فى السينما. وشوف البجاحة بتاع الواد، بعد الجواز بعتلى رحت قابلته، قال إيه.. عاوز يشغلنى عنده.

– يشغلك إيه يا عم عبدالهادى، هوه بيبيع إيه؟

– بيبيع مرشيدش وبيبيع درة وفول بيجيبهم من بره، وبيبيع عجول وأراضى وبيشترى دولارات، وبعيد عنك طول الليل سهران يسكر ويلعب قمار، واللى هيجننى إن ربنا بيمد له الحبل وبيعطيه من واسع، وبعدين مش مكفيه يضحك على الناس، كمان بيضحك على ربنا، تصدق يا أستاذ.. عمل دقن طويلة وطلعتله زبيبة فى جبهته!!

هذا إذن هو سر حميدكو، جمع المجد من أطرافه، جمعت الشركة بين حميدو والبنت حلاوتهم التى اشتهرت فى السينما باسم زيزى، ويبدو أن البنت كان لها نفوذ قوى على حميدو، فسرعان ما ظهر فى الجيزة سوبر ماركت حديث باسم سوبر ماركت زيزى، وكما أصبح حميدو من رجال الأعمال، صارت زيزى من ستات الأعمال، وأصبح الأستاذ حديث أهل الجيزة.

ذات مغربية همس الولد كتكوت فى أذنى بأن سيدة فى سيارة خارج القهوة تريد أن تقول لك شيئا هاما، ولكنها تخجل من دخول القهوة. ونهضت بسرعة وعندما اقتربت من السيارة وجدت داخلها سيدة أنيقة تضع على وجهها أصباغا بطريقة توحى أنها راقصة أو ممثلة إغراء، وابتسمت ابتسامة رقيقة واعتذرت عن الطريقة التى استدعتنى بها. وقالت :

كان لابد أن أراك وأتكلم معك، أنا والدى كان دايما بيتكلم عنك

ومعجب بك، وع العموم إحنا مش هنعرف نتكلم هنا، تسمح تتنازل وتشرب معايا فنجان قهوة.
سألتها :
– فين؟
قالت بسرعة :
– فى كازينو شهريار على البحر.
ثم قالت :
– مش ها اعطلك يا دوب فنجان القهوة بس.
صعدت إلى العربة وجلست بجوارها، وأشارت هى للسائق بالإسراع إلى كازينو شهريار. بمجرد دخولنا الكازينو ابدت امتعاضا شديدا للحالة البائسة التى وصل إليها الكازينو، قلت لها :
– دا حاله كده من زمان.
قالت وهى مشمئزة ·
– فعلا أنا بقالى عشر سنين ماجيتش هنا.
عقبت على كلامها قائلا :
– بس دا بقاله كده أكثر من كده.
ابتسمت ابتسامة جميلة وقالت وهى تغمز بعينها :
– أنا مش عجوزة قوى كده.
وحول ترابيزة متهالكة عليها مفرش كله ثقوب وبقع، سألتها :
– أنا ما تشرفتش باسم سعادتك.
قالت بصوت أنثوى رقيق :
– يا خبر.. أنا مدام حميدو رجل الأعمال.
– أنت مدام زيزى بالتأكيد.
– كان والدى يصفك بأنك يقظ دائما لا تفوتك شاردة أو واردة.
دققت النظر فيها، كانت ترتدى بلوزة بلون الفضة مفتوحة عند الصدر أكثر مما ينبغى، وجوب أسود مينى جيب، كاد يختفى بعد أن جلست وكشفت عن سيقان نموذجية، وأوراك كمواسير مدافع تنادى ـ

على رأى ناظم الغزالى ـ على عاصى الهوى الله أكبر!! بادرتها قائلا :

- أنا تحت أمرك.

- العفو يا أستاذ إحنا كلنا اللى تحت أمرك.

ثم قالت بعد أن أصلحت فتحت البلوزة ففتحتها أكثر.

- الحقيقة الحاج حميدو كان عاوز يكلمك بس انكسف، لكن محسوبتك بقى فى الحق ما تتكسفش، وإحنا عاوزينك فى خدمة.

- ياريت أكون أقدر عليها.

- دانت تقدر على المستحيل.

كان الجرسون قد أحضر فناجيل القهوة فرشفت رشفة ثم قالت :

- إنت عارف أعمالنا توسعت قوى، والشركة بقت شركة محترمة وبتشتغل فى حوالى ١٠٠ مليون.

ثم تناولت رشفة أخرى من الفنجال وقالت :

- الحقيقة إحنا بنشتغل بإدينا وسناننا، بس إحنا لازم نقول الحق، الحكومة دى بتشجع اللى عاوز يشتغل، إحنا صحيح مديونين للبنك لكن الحمد لله بنسدد أول بأول، والمكاسب الحمد لله كتير وخير ربنا مغرقنا.

- وأنا مطلوب منى إيه؟

- إحنا فكرنا نعمل قسم للدعاية فى الشركة، قلنا سيادتك أحسن واحد يمسكه، القسم دا هايبقى إدارة كبيرة قوى، وأنت اللى هتختار الناس اللى يشتغلوا معاك وتحدد رواتبهم كمان.

قلت على الفور :

- ياريت كنت أقدر.

- لا عشان خاطرى، دا أنا عشمى فيك كبير قوى، دا أنا من زمان نفسى أتعرف عليك، نفسى أعرف شخصية عقلها كبير زيك كده.

- أنا يا ستى كان على عينى وراسى، وأنا باشتغل بقالى اربعين سنة، لكن عمرى ما أعرف حاجة عن الدعاية والإعلان، أنا فى الحقيقة باكتب الكلمتين بتوعى وبس.

– طيب بلاش تاخد قرار دلوقت، خد وقت.. فكر وبعدين قول.
سكتت زيزى عدة ثوان قبل أن تقول :
– طبعا عاوزة أقولك للعلم بس إن مرتب الوظيفة ٦٠ ألف جنيه فى السنة.
دفعت ثمن القهوة وركبنا السيارة التى توقفت بنا أمام القهوة، وقبل أن أغادرها صافحت زيزى، فغمزتنى فى كفى وقالت :
– عاوزين نقعد مرة نتكلم فى حاجة ثانية غير الشغل.
مرت أيام كثيرة انستنى كل ما دار فى مقابلتى مع زيزى. ولكنى فوجئت ذات مساء بالحاج حميدو يدخل القهوة ويتلفت حوله، وعندما رآنى اندفع نحوى بقوة وصافحنى بحرارة، ولاحظت أن «دقنه» قد طالت عن ذى قبل، وأن أصابعه تمسك بمسبحة طويلة غالية الثمن، وعندما قلت له ملاحظتى عن المسبحة تركها وأقسم بالله العظيم أنها لى ولن يستعملها أحد غيرى. حاولت الاعتذار ولكنى لم أفلح. قال الحاج حميدو :
– حد يرفض سبحة.. دا حتى حرام. هو أنا من غير مؤاخذة باديك بدلة ولا بالطو، دنا باديك حاجة بتاعة ربنا.
جلس الحاج فى مواجهتى ثم قال :
– إيه الحكاية؟ الحاجة زيزى طمنت قلبى وقالتلى عالمقابلة مع سيادتك، وبعدين يا سيدى أنا عرضت عليك شركة معايا وأنت ما رضيتش، قلت نستفيد بعلمك، دانت راجل كل الناس تعرفك ودماغك توزن بلد. وإذا كان المرتب مش عاجبك نرفعه وزى ما تقول :
– أولا المرتب المعروض أكثر من مرتب مدير بنك، وأنا عمرى ما حلمت بحاجة زى دى، بس المشكلة إن أخوك ما يعرفش فى الشغلانة اللى انتو عاوزنى فيها. وأنا ما حبش أكدب على نفسى ولا أكدب على الناس.
– يا سيدى ماتدقش، إنت كفاية قعدتك عندنا، مشكلة تصادفنا، حاجة تحصل كده أو كده، تبقى معانا.

– إنت عارف أنا باصحى م النوم بعد الضهر، وبعدين أنا كبرت على الشغل، وعاوز أتأمل الشوية اللى فاضلين لنا.

– والنبى ما تكسفنى، وع العموم الحاجة زيزى عازماك بكرة ع العشا، إن جيت هتطول رقبتى ويبقى كتر خيرك.

– هو بكره إيه؟

– ما تقوليش إيه وفين؟ دا الحاجة زيزى طابخة الأكل بإيديها. دنا بعت جبت بطارخ من بورسعيد النهاردة.

لا أعرف ما السبب الذى جعلنى أوافق على حضور حفل العشاء مع الحاج والحاجة، ربما رغبة دفينة فى رؤية زوبة مرة أخرى؟

ولازلت حتى بعد انتهاء الوقت الأصلى واللعب فى الوقت الضائع تثيرنى الصدور النافرة والوسط المخنوق والأرداف التى فى حجم عضلات تايسون، حلقت شعرى فى ذلك الصباح ومسحت حذائى، ربما لأول مرة منذ أشهر وذهبت فى الموعد المحدد، وعندما ضغطت على جرس الباب فتحت على الفور، وكأن أحدا كان يراقب مجيئى من مكان ما فى المنزل.. وفوجئت بالحاجة زيزى تلقى بنفسها فى أحضانى، وأصابنى عطرها الغالى بدوار خفيف ولكنى سحبت نفسى بقوة، فقد خشيت أن يفاجئنى الحاج وأنا على هذا الوضع. ولكنى اكتشفت عندما أصبحت فى حجرة الصالون أن الحاج ليس موجودا بالمنزل، وأنه يرأس مجلس الإدارة المنعقد فى تلك اللحظة. كانت زيزى ترتدى روبا من الحرير اليابانى، وتحته قميص نوم فستقى يكشف أكثر مما يستر، حاولت أن تقدم لى كأسا ولكنى رفضت بشدة وتمسكت بشرب الشاى بالنعناع، يا سبحان الله، الجمال موهبة، والجميلة موهوبة كالشاعر والموسيقى والممثل والرسام، والجمال هو أعظم المواهب جميعا، ومن قال غير ذلك فهو عاجز أو قصير الذيل أو عديم الذوق أو عديم الإحساس. ولا يكفى أن تكون موهوبا فقط، بل يجب أن تكون موهبتك من أغلى قماش، ودائما هناك موهبة رخيصة وموهبة غالية، أرثر ميلر كان يبيع المسرحية بمليون دولار، والمؤلف عبدالسميع الجاموسى

يتقاضى مائة جنيه فى المسـرحية. وموهبة زيزى من نوع موهبة أرثر ميلر، لو لم تكن تعمل مع حميدو، ولو لم تكن مـشبوهة لقبلت عرضـها على الفور، ليـست من أجل المرتب ولكن من أجل أن استـمتع بجمـالها على الدوام، لا أعـرف فى أى شىء سـرحت بعـيـدا، ولكنى عـدت إلى نفسى بعد أن شعرت بأصابعها تمسح جبهتى بمنديل ورق. واكتشفت إننى حلقت بعيدا أثناء سرحانـى، وأننى أتصبب عرقا، ضربت يدى فى جيبى وأخرجت المسبحة الغالية ورحت أتمتم على صوت حباتها باسم الله. وابتسمت زيزى وقالت:

– أهو أنت دلوقـتى بقـيت السطة على الشـغل مـعـانا، إحنا أصلنا بنشتـغل بالاقتـصاد الإسلامـى. بس دا ما يمنعش إن الواحـد يفرفش نفســه شوية، يشـرب كاس، يسهـر سهرة حلوة، الدنيـا مش نكد على طول.

عندمــا بدأنا فى تناول العـشاء كـان ارتبـاكى قد أصـبح واضـحـا، وسقطـت قطعة من السـمك على بنطلونى فسـارعت زيزى إلى المطبخ وأحضرت فـوطة نظيفة وماء سـاخنا وبعض مسحوق غـسيل، وراحت تمسح مكان البقعة وقالت وهى تضحك ضحكة ساحرة.

– اللى يشوفك من بره ما يعـرفش حقيقتك، أنا يتهيـأ لى إنك بتمثل إنك عجوز.

قلت لها :

– ياللا حسن الختام.

قالت ضاحكة :

– خـتام إيه وبـتاع إيه. دا أنت شـبـاب على طول، على رأى المـثل «الدهن فى العتاقى».

الآن.. اكتـشفت أنه لا يوجـد فى الحيـاة شىء اسمه الشـيخـوخة، الإنسان يـشيخ بإرادته ويظل شـابا بإرادته، وهناك وسائط لابد منـها والوسائط أنواع، منها مـا يجذب الإنسان إلى الحيـاة ومنها ما يدفع به إلى القـبر، والبنت زيزى تسـتحق الـنعمـة التى ترفل فيـها، فـهى من

الوسائل التى تحفظ الحياة.. عرفت الآن لماذا احتفظ الحاج أبو هاشم بشبابه حتى عبر المائة عام. كان يتزوج كل عام هجرى من فتاة فى عمر الورد، ثم يطلقها بمعروف ويعطيها مما أعطاه الله. وكان يعطيها ما يكفيها لسنوات طويلة، ولذلك لم ترفض بنت من البنات طلبه فى أى وقت. كان الحاج أبو هاشم يشترى الشباب والحياة بالفلوس.. ولو كانت مهنة الكتابة تدر أرباحا كتلك التى تدرها تجارة الحديد التى كان يحترفها الحاج أبو هاشم لما ترددت فى اتباع اسلوب الرجل الذى عاش حتى رأى أحفاد أحفاده. عندما انتهى العشاء دق جرس الباب ودخل الحاج حميدو وفى يده سيجار كوبى شهير، وراح يعتذر عن غيابه لأن مجلس الإدارة كانت أمامه عدة مشاكل لدراستها، ولم نشأ فض المجلس إلا بعد حل كل المشاكل.

سألته وأنا أعبث فى حبات المسبحة :

– مشاكل زى إيه ؟

– الأمر ما بيخلاش يا سعادة البيه. جايبين شحنة سمك، مركب بحالها.. يعنى حاجة تأكل مصر كلها، وبعدين سعرها خفيف ومشاركة من الشركة فى الأمن الغذائى، تطلع لنا بنت مفعوصة من بتوع الجامعة اللى ما بيفهموش راسهم من رجليهم، قال إيه، السمك دا ما ينفعش للاستهلاك الآدمى، عجايب، أمال ينفع لإيه؟ هيه الحيوانات رخرة بتاكل سمك ؟

– طيب، وهتعملوا إيه؟

– بكرة إن شاء الله هنبعت سيارة المدير بتاعنا لمدير البنت دى عشان يشوف لنا حل.

– وتفتكر هيشوف حل ؟

– يا سعادة البيه، الناس الكبار عندهم الربط والحل، لكن دى بنت موظفة بتلاتة تعريفة تلقاها ما دقتش السمك فى حياتها، يقوموا يخلوها تتحكم فى رقاب الناس اللى عاوزة تساهم فى الأمن الغذائى؛

سكت حميدو فترة قصيرة ثم قال لزيزى، إنت هتسبينى أموت

م الجوع، أو الحكاية على رأى المثل، من شاف أحبابه نسى أصحابه»؟
ضحكت زيزى واتجهت إلى المطبخ، فالتفت الحاج حميدو نحوى وقال :
– والناس بتقر علينا وبيقولوا بيكسبوا من غير تعب، طيب واللى خلقك أنا على لحم بطنى من ساعة الصبح، ياريت الواحد يرجع تانى لأيام الراحة. والفقر.
قلت له بخبث :
– هيه كانت أيام فقر بس لكن ماكنتش أيام راحة.
– عندك حق، بس الواحد كانت أعصابه مرتاحة وماعندوش قلق.
سكت الحاج حميدو فترة قبل أن يسألنى :
– اتفقت مع الحاجة زيزى، أوعى تكون كسفتها. حاولت أن اتكلم ولكنه أشار إلى بالصمت وعاود الحديث :
– شوف يا سيدى، أنا عندى عرض تانى، إيه رأيك تشتغل مستشار للشركات بتاعتنا؟ أظن مافيش حجة بقى.
قررت أن أترك المسألة معلقة، كنت أتوق إلى رؤية زيزى مرة أخرى، فقلت للحاج حميدو :
– دا عرض مش وحش، بس سيبنى كام يوم أفكر.
عندما عرفت الحاجة زوبة بالعرض الجديد وبموقفى منه، صفقت بشدة، وقالت :
– ألف مبروك.

٨ الحاجة زيزى !

الست المُدَرَّبَة زوجة حميدو أدركت أننى واقع لشوشتى فى غرامها، فراحت تنصب الشباك حول العبد لله.. تليفونات بعد منتصف الليل، ثم همس بصوت مبحوح وبطريقة توحى بأنها مريضة.. سألتها ذات تليفون :

– إنت مالك ؟

– عيانة ومش عارفة أنام.

– عيانة عندك إيه ؟

– عندى حب، والحب يضيع ويكسر الجسم.

سألتها :

– وبتحبى مين إن شاء الله ؟

قالت فى صوت انثوى مشحون بالرغبة :

– اللى مش حاسس بيه ومطنش.

– معقول الكلام ده، دنا عارف إن اللى بيحبوكى مايتعدوش.

ضحكت ضحكة موحية ثم قالت :

– العدد فى الليمون، وعلى رأى المثل كلنا بنحب القمر، والقمر بيحب مين ؟

ويعدين أنا مش هاضحك عليك أنت راجل عقلك يوزن بلد وأنا ورايا رجالة بالكوم، كلهم عندهم فلوس وعندهم أملاك وعندهم كل اللى

تتمناه أى واحدة ست بس مش اللى أنا عاوزاه.

– غريبة أمال أنت عاوزة إيه ؟

– عاوزة راجل بيفهم وعقله كبير والناس بتحترمه، مش عشان فلوسه لكن عشان شخصيته دا اللى أنا عاوزاه.

– والراجل ده لسه ماجاش فى سكتك ؟

– للأسف جه فى سكتى وقعدت جنبه واتكلمت معاه بس ولا هو هنا بيعاملنى زى العروسة الحلاوة بتاعة المولد.

طيب ما تقوليله بصراحة..

أقوله إيه.. أنا دايبة فى حبك ؟ يا أستاذ : الرجالة بتحس الحاجات دى من لمسة، من نظرة، من كلمة، الحاجات دى مش عاوزة تصريح، التلميح يكفى. ثم أطلقت ضحكة رنت فى أذنى كزغرودة صادرة من حنجرة شابة فى ربيع العمر، وقلت لها فى محاولة للهروب منها قبل أن يفضحنى صوتى الذى أخذ يرتعش ويتكسر بسبب محاولات المرأة المدربة على اصطياد الرجال فما بالك برجل فى مثل ظروفى يزحف نحو الستين، ولم يحصل من طيبات الدنيا إلا على النزر اليسير إلى جانب ما حصلت عليه من المطاردة والقهر والغياب وراء الأسوار عدة سنوات بالإضافة إلى التشرد خارج الحدود فى بلاد الله خلق الله قلت لزيزى تمهيدا لقطع المكالمة :

– إنت باين عليكى فايقة قوى النهاردة وأنا مش قدك ومانمتش بقالى يومين وحاسس إن أنا هانام وأنا باكلمك.

وردت على العبد لله قائلة فى حركة شقاوة مقصودة :

– اللى واخد عقلك يا هناه.

– ياريت كان فاضل عندى حاجة وحد ياخدها..

– طيب أنا هاسيبك عشان تنام بس بشرط..

– أنا تحت أمرك..

– أشوفك بكره..

- لا بلاش بكره..
أردت بهذا الجواب أن أبدو قويا لا أخضع للإغراء.
- طيب إمتى تحب ؟
- خليها يوم الثلاثاء.
أطلقت ضحكة صاروخية من النوع الذى يحيى الموتى، وقالت فى دلال :
- طيب ما هو بكره الثلاثاء.
قلت وأنا أتصنع الارتباك:
- معقول دا أنا وحياتك ناسى احنا يوم إيه النهاردة
- خلاص أنا منتظراك بكره على العشا.

لم أستطع النوم بعد انقطاع الاتصال التليفونى، الحقيقة أننى لن استطيع الإفلات من براثن الحاجة زيزى، والحقيقة الأخرى أننى لا أريد الإفلات من براثنها، والحقيقة الثالثة أن النوم لم يعرف طريقه إلى عيونى بعد أن تحدد موعدى معها، وتأكدت أننى سأجلس إلى جوارها وأتطلع إليها وأشم رائحتها، تمنيت وأنا أتمدد على سريرى لو كنت تاجرا فى سوق الجملة، لو كنت فلاحا من الأعيان، لو أننى كنت منفتحا من بتوع التصدير والاستيراد، ثم ارسلت الصدف هذه المرأة فى طريقى فعشت معها شهورا. أو حتى أسابيع، ثم أضع حياتى وكل ثروتى تحت أقدامها فما هو الهدف من جمع الفلوس إلا استخدامها فى غرض كهذا ؟ ضاع شبابنا فى نظريات شديدة السذاجة عن ضرورة الالتزام إلا بما يفيد الحاضر ويحقق طموحات المستقبل. وعندما مضى قطار العمر اكتشفنا أن كل ما تعلمناه كان خطأ، وكل ما اتبعناه كان باطلا، وأن الحقيقة الوحيدة هى زيزى وما عداها فهو باطل وقبض الريح، ما أكثر الفرص التى مرت بى فى حياتى ولم ألتفت إليها. ومن هو الأقدر ؟ اينشتاين الذى اخترع النسبية ؟ أم حميدكو الذى اكتشف أقصر الطرق لكسب الفلوس؟ وممارسة الحياة اللذيذة ؟ هل أندم على

الحياة التى عشتـها ؟ والقضايا التى اعتنقتها، والمعـارك التى خضتها، والأيام السود التى تجرعت مرارتها فى المنافى والسجون.

●●●

هأنذا أخيرا فى بيت حمـيدكو، وها هى الغندورة زيزى فى الصورة التى أحب أن أراها عليـها. ومن حسـن الحظ أن حميـدو لم يكن هناك، كان مـشغولا باجـتمـاع مجلس الإدارة وهو مجلس إدارة يـختلف عن جمـيع مجالس الإدارات التى عـرفها البـشر منذ اختـرع الإنسان نظام الشركات، وإلى أن تفنى الأرض ومن عليها فأحيانا تستمر الجلسة عدة ساعات فى صـخب شديد وصراع أشد.. وأحـيانا يتكلمون جمـيعا فى وقت واحد ولا مستـمع.. أحيانا يغضب أحدهم فيـشخر وينخر ويسب الأخضرين، ثم يقـترب من العضو المنافس ويهبـده بالدماغ أعلى أنفه، ثم ينشغل الجمـيع بعد ذلك بتضميد جراح عـضو مجلس الإدارة، وفى أغلب الأوقـات تنتهى الجـلسة فى المـستـشـفى أو فى قسم الشـرطة. وجلست زيزى ورائحة عطرها النفاذ تشع فـى أرجاء الحجرة، وراحت تحكى لى عن همـومها، وكـيف أن حميـدو لم يعد يهتـم بها، اهتمـامه أصبح أكبر بالفلوس وبأحوال الشركة ثم قالت فى أسف حقيقى :

– أنا زهقت مـن العـيـشـــة دى، أنا مش عــاوزة دهب ولا هدوم ولا فسح ولا أى حاجة أنا عـاوزة راجل يرعانى ويحمينى وأتعلم منه.. كل قسمتى من الرجالة كانوا بيفكوا الخط بالعافية . ثم قالت :

– أنا صـحـيح مـا عنديش غـيـر الابتـدائيـة لكن القـراءة فى دمى وعاوزاك تكتبلى أسماء بعض الكتب عشان أشتريها.

ونهضت على الفـور وعادت معهـا ورقة بيضـاء وقلم قدمتهـما لى وجلست فى مـواجـهـتى فى انتظار تحـرير قـائمة الـكتب التى أنصح بقراءتها.

ورحت أسالها عن نوع الكتب التى تحب قراءتها فأجابت :

– أحب التـاريخ عشـان فيـه حكايات حلوة ومواعظ أحـسن وأحب

كمان القصص والروايات اللى تملأ الدماغ.

قضيت عدة دقائق أفكر فى الكتب التى أقترح عليها شراءها، وكتبت فى القائمة جزءا من تاريخ الرافعى وعدة كتب للرحالة محمد بك ثابت ثم عدة روايات لإحسان عبدالقدوس ويوسف السباعى وأمين يوسف غراب وعبدالحليم عبدالله وعندما ألقت نظرة خاطفة على القائمة قالت وهى تضحك :

– همة دول شوية الكتب اللى طلعوا من ذمتك.

– دول وجبة سريعة ولما تخلصيهم هاكتبلك تانى.

– وهوه إحنا بنشوفك وأنت التقل عندك صنعة.

اعتذرت لها بمشاغلى الكثيرة إلى درجة أنى لم أحصل على إجازة منذ عشرات السنين ويبدو أنها لم تقتنع بما قلته فاقتربت منى أكثر وقالت:

– تعرف تقولى مشغول فى إيه ؟ وأنت بتكتب كلمتين وتبعتهم مع السواق بتاعك.

ثم أضافت :

– انتو كده يا بتوع الجرائد زى أم العروسة فاضية ومشغولة ثم اقتربت أكثر وقالت :

– أنا عوزاك تفضالى شوية أنا حاسة أن أنا ضايعة ووحدانية ومفيش حد ورايا.

قلت لها وأنا أحاول تركيز نظارتى الطبية حول عينى :

– أنا تحت أمرك وفى أية فرصة تحتاجينى فيها هتلاقينى معاكى.

– أهو إحنا ما بناخدش منكو غير الكلام، وعلى كل حال أنا كنت عاوزاك تشتغل معانا عشان تبقى جنبى، بس أنت مافهمتش قصدى ويمكن تكون فهمت قصدى وعملت طناش.

– أنت عيبك الوحيد يا حاجة زيزى إن كل الناس عندك بتراوغ وتكذب.

- لأ يا أستاذ دا مش كدب واتقل بس.
- أنا يا ستى عجزت قوى على الكدب والتقل والحاجات دى.
حدجتنى زيزى بنظرة فاحصة ثم قالت بدلع :
- أنت عجزت عينى عليك باردة وانت اللى يشوفك يقول دانت لسه ما دخلتش دنيا.
ضحكت أنا ضحكة مجلجلة ثم قلت :
- على رأى المثل من بره هلا هلا ومن جوه يعلم الله.
ضحكت زيزى ثم نادت على الخدم وطلبت إعداد العشاء، واعترضت وطلبت من زيزى أن ترجىء مسألة العشاء حتى يحضر الحاج حميدو ولكن زيزى أصرت على تناول العشاء قبل حضور حميدو وقالت :
- ما أنا قلتلك حميدو اتجوز الشركة.. أنا بقالى أسبوعين ما شفتش وشه. دا حتى الصبح بيصحى بدرى ويفطر لوحده ويمشى.
شعرت ببعض النفور بعد العشاء فاستأذنت فى الانصراف ففوجئت بزيزى تقول فى صراحة وبوضوح :
- إنت محتاج لتدليكة حلوة.
وضحكت أنا وقلت لها :
- الأسبوع اللى فات رحت النادى وخدت حمام ودلكونى لكن التعب استمر.
قالت : طيب جرب تدليكى وبعدين ابقى احكم.
ونهضت من جلستها ومدت أصابعها وراحت تدلك قفاى وأعلى ظهرى وكتفى ولا أعرف كيف شعرت براحة شديدة إلى درجة أننى تمنيت لو أنها قامت بتدليك جسمى كله كما تمنيت أن تستمر فى تدليك المنطقة التى اختارتها إلى ما لا نهاية.. صدق من قال إن النساء لسن كلهن من صنف واحد، زيزى مثلا ليست كغيرها من النساء ولو كانت من اليابان لأصبحت من فتيات الجيشا امرأة مدربة على لقاء الرجال واستضافتهم والحديث معهم واللعب بعواطفهم وخيالهم. وهى مرتبة

لا تصل إليها المرأة بالتدريب فقط ولكنها تحتاج إلى موهبة أيضا.. شعرت بالراحة فعلا لأن أصابع زيزى كانت أشبه بعازف عبقرى تعرف طريقها إلى المواقع التى تصدر عنها أجمل الألحان ويبدو أن زيزى رأت علامات البهجة ترتسم على وجهى فقالت تسألنى :

– إيه رأيك بقى ؟
– يا سلام دا إنت عملت معجزة.
– أمال تقول إيه لو دلكتلك ظهرك ؟
– وهل هذا ممكن ؟
– مش ممكن ليه فيه حد قاعد معاك إنت خايف منه ؟
– قاعد معايا فين ؟
– فى البيت..
– إحنا هانتقابل فى البيت قريب ؟
– إذا ما كانتش عندك مانع ؟
– لا أنا قصدى أقول إنت حتتنازلى وتشرفينى فى البيت ؟

أنا مش هاتنازل ولا حاجة، أنا ها تشرف بزيارتك وكان نفسى أزورك من زمان عاوزة أشوف المكان اللى بتقرا فيه والمكان اللى بينزل عليك فيه الوحى لما تيجى تكتب.

– يا ست الحسن والجمال تشرفى بس نعرف الميعاد عشان نفرش رمل فى الشارع كله.

ضحكت زيزى ضحكة رقيقة لم اتمالك نفسى وفقدت توازنى وتخليت عن وقارى.

وتركت لأصابعى حرية العبث فى شعرها، ثم تجرأت أكثر فلما قاومتنى قالت لى وقد بدا عليها الغضب والتأثر لدرجة أننى لمحت دموعا فى عينيها :

– أنت دايما بتعمل كده ؟ هوه مزاجك إنك تاخد بالعافية.

شعرت بالخجل فاعتذرت عما بدر منى وابديت لها ندمى وتعللت

بأن ما حدث من جانبى دليل على شدة تأثيرها الذى أفقدنى الاتزان والوقار، وهى المرة الأولى التى أخرج فيها عن شعورى إلى هذا الحد، ورسمت ابتسامة على شفتى وقلت :

– ما بدر منى الليلة دليل على قوة تأثيرك، فأنا ودعت الشباب منذ فترة طويلة. استأذنت وغادرت الصالون وغابت فترة، واكتشفت عند عودتها أنها استبدلت ملابسها بملابس أكثر إثارة.. كانت تمسك بين أصابعها بورقة بيضاء فولسكاب وقلم وقالت :

– اعمللى بقى الخدمة دى.

التقطت الورقة والقلم وقلت لها :

– عاوزة إيه ؟ كتب جديدة ؟

ردت بهدوء :

– لا، حميدو بك فاهم إن أنا مؤلفة وعاوزنى أكتب له إعلان عن المدينة السكنية الجديدة بتاعة الشركة واسمها مدينة زمزم.

– زمزم مرة واحدة، وعاوزانى أكتب أقول إيه ؟

ضحكت وهى ترعش حاجبيها وقالت أنا اللى حقولك برضه، أنا أقول للأستاذ الكبير، المهم تقول فيها حمامات سباحة وسوق وجناين وحديقة أطفال وسينما وملاهى وشوية كدة من البكش اللى إنت عارفه، بس أكتب إنت وأنا هانقله بخط إيدى عشان حميدو ينبسط . ووجدت فى كتابة الإعلان خروجا من الورطة التى أوقعت نفسى فيها وغادرت مقعدى وجلست على مائدة الطعام وانهمكت فى كتابة الإعلان وعندما انتهيت من تحرير الإعلان سلمتها الورقة واستأذنت فى الانصراف فقالت بدلال :

– تمشى وإنت فى الحال ده ؟

– أمال عاوزانى أعمل إيه يعنى ؟ أنام هنا ؟

– وفيها إيه يعنى ؟ ما إنت فى بيتك برضه.

ثم جذبتنى من يدى وأجلستنى على الكنبة الفاخرة ثم راحت تمارس معى نفس العمل الذى قامت به من قبل راحت تدلك عنقى وكتفى وأعلى ظهرى فلما اقترب وجهها من وجهى تضاعفت متعتى كثيرا عندما شعرت باستجابة زيزى، ولكنها انتزعت نفسها فجأة وبقوة وراحت تسوى شعرها بأصابعها وتصلح من شأن فستانها القصير، وتصورت أنها غضبت مرة أخرى، ولكنى فوجئت بدخول حميدو، وبدا علىّ الاضطراب ولكنه رحب بى بحرارة شديدة واعتذر عن تأخره بسبب انشغاله فى أعمال الشركة وخشيت أن يكون حميدو قد لمح أى تغيير فى هيئتى أو على شكلى ولكنى لم ألمح من تصرفاته أى دليل على ذلك وقد ابتهج كثيرا عندما ابلغته زيزى بنبأ تنازلى وقبولى تحرير الإعلان عن مدينة زمزم وقال وهو يكاد يطير من الفرحة :

يا سلام، دى هتبقى مدينة مبروكة بحق وحقيق طب تعرف سيادتك الطلبات اللى عندنا ضعف بيوت المدينة، عشان كده هنتقبل طلبات الناس اللى هتدفع فورى، والناس التانيين هيطبق عليهم قانون اللى مامعهوش مايلزموش!

ثم ضحك ضحكة طويلة ساخرة وقال :

على فكرة يا أستاذ الناس معاها فلوس زى الرز بس حطينها تحت البلاطة والناصح بقى هو اللى يخليهم يطلعوها، ثم نظر نحوى وقال:

أنا مزاجى بقى أحجزلك فيلا فى المدينة، حاجة يا أستاذ زى الجنة بالضبط، وفاحتين فيها بير بيطلع ميه زى العسل، واتفقنا نعمل مصنع صغير وناويين نبيع الميه فى السوق ونسميها مية زمزم إيه رأيك أحجزلك فيلا ؟

– وبكام الفيلا يا حج حميدو ؟

– نص مليون بس ونهار ما يكمل المشروع هتساوى الفيلا ثلاثة

مليون بالميت.

عندما لم يسمع منى جوابا سألنى فى لهفة :

إيه رايك أحجزلك الصبح ؟

أجبته بدون حماس :

ماتعملش حاجة إلا لما أقولك.

وبالرغم من الإجهاد الذى يبدو عليه فقد نزل معى إلى الشارع ولم يتركنى إلا بعد أن انطلقت بسيارتى عائدا إلى المنزل.

٩ المحاكمة

– اسمك إيه؟

لم أتوقع توجيه مثل هذا السؤال لى، فأنا كاتب معروف منذ نصف قرن، ليس فى مصر وحدها، ولكن فى كل أرجاء العالم العربى. وتمت ترجمة أكثر من كتاب لى إلى اللغات الأجنبية، ولكن لا بأس، فهى تجربة على كل حال.

– عملك ؟

● وهل يوجد أحد فى الدنيا لا يعرف عملى؟

أنا الكاتب والأديب والناقد الكبير، الذى أشعلت المعارك واقتحمت الصعب ونمت فى السجون سنوات فى سبيل ما أؤمن به، ومع ذلك لا بأس، فهى تجربة على كل حال.

– ما علاقتك بالمدعو حميدو؟

● لا علاقة لى به على الإطلاق، كل ما هناك أننى كنت أتعامل معه فى فترة من الفترات فقد كان يمسح الأحذية فى قهوة كتكوت وكنت أنا من زبائنها الدائمين، هذا كل ما هناك.

– ولكنى أسألك عن علاقتك به الآن بعد أن صار من كبار رجال الأعمال وأصبح نجما من نجوم المجتمع.

● لا شىء على الإطلاق، كل ما هناك أنه جاء ذات مرة إلى القهوة وحدثنى فى شأن شركته التى على وشك إنشائها وعرض علىّ أن

أشاركه فى مشروعه، واندهشت جدا لهذا العرض، وفكرت فى أن أرده ردا عنيفا، ولكن صرفته بهدوء وانتهى الأمر.

- ألم تحضــر لك زوجتــه وذهبت معــها إلى كازينو شــاطىء النيل وعرضت عليك الاشتراك فى المشروع؟

● أظن أنه حدث شىء من هذا.

- تظن أم حدث بالفعل ؟

● حدث بالفعل.

- وماذا كانت النتيجة؟

● صرفتها بمعروف أيضا واعتذرت لها.

- ولمــاذا وقع الاخــتــيــار عليك أنت بالذات للمــشــاركــة فى هذا المشروع؟

● لا أعرف ولا أدرك نواياهم الحقيقية فى هذا العرض المشبوه.

- لماذا وصفت العرض بأنه مشبوه؟

● لأن شخصا مثل حميدو كان لابد أن يعلم أننى لن أقبل الاشتراك معه فى أى عمل مهما كانت الظروف.

- ولماذا لا تقــبل الاشتراك فى مشــروع حميدو وهو عــمل تجارى مشروع؟ هل أنت ضد الانفتاح؟

● أنا لست ضــد الانفتــاح ولا مع الانفتــاح، وأرى أن هذا الانفتــاح، أفاد مصر من بعض النواحى، كما سبب لها الضرر فى نواحى أخرى.

- ما هى أوجه الضرر وأسبابها ؟

● لأن الانفتاح سمح لبعض الشوائب من شاكلة حميدو للظهور على قمة المجتمع عن طريق قروض هائلة من البنوك لإنشاء شركة توظيف أموال، مع أنه لا يفهم فى شىء إلا مسح الجزم.

- ولكن هناك الكثير من ملوك التجارة والمــال بدأوا حياتهم بأعمال تافهة مثل حــميدو فى مسح الجزم وتوزيع الجرائد وغــسيل الصــحون والمطاعم.

● هؤلاء ظهروا فى مـجتمعـات تختلف كثيـرا عن مجتمـعنا، فهناك طلبة فى جامـعة أوكسفـورد يعملون فى غسيل الصحـون وهناك طلبة فى جامـعة هارفارد يـقومون بجـمع الزبالة. ومقارنـة حميـدو بهؤلاء ليست من المنطق فى شىء.

– أنت تقول أنك رفضت الاشتراك مع حـميدو رغم أنه عرض عليك العمل معه، وأيضا السيدة زوجته.

● نعم، هذا حدث.

– لماذا عدت وقبلت العمل معهم بعد ذلك ؟

● أنا لم أقبل العمل معهم فى أى وقت.

– ألم تذهب إلى بيت حميدو أكثر من مرة؟

● نعم ذهبت مـــرة فى زيارة خـاطفـة، ولم أمكـث هناك إلا فـتـرة قصيرة من الوقت.

– قررت زوجــة حميـدو أنك قمت بزيارتهم فى الـمنزل ثلاث مرات وقضيت السهرة هناك وتناولت معهم طعام العشاء.

● أنا لا أتذكـر عـدد المـرات، ويخيـل إلىّ إنى ذهبت مـرتين وإننى تناولت العشاء مرة.

– ما سـبب قيامك بهذه الزيارات إذا كـنت قد رفضت العمل مـعهم، وأنك لا تعرف حميدو إلا كماسح أحذية فى قهوة كتكوت؟

● فى الواقع أنا ذهـبت إلى منزله تحت الحـاح الـسـيـدة الفـاضلة زوجتـه لدرجة التـوسل، وتصورت أنهـا تريدنى فى مـسألة إنسـانية تخصـها، ولذلك قررت الذهاب إلى المنزل.

– زوجة حـميـدو قررت أنها اقنـعتك فى تلك الزيارات بالاشـتراك معهم؟

● هذا محض افتراء. لقد زرتها بالفـعل وقضيت معها بعض الوقت. كان لديها مشكلة وسألتنى النصيحة وهذا كل ما فى الأمر.

– هل تذكر هذه المشكلة التى كانت تعانى منها ؟

● لا، لا أذكر الآن.

– ولكنها تقول أنك وافقت على الاشتغال معهم وبراتب شهرى قدره عشرة آلاف جنيه وأنك أديت بالفعل بعض الأعمال.

● هذا محض افتراء وكذب صريح.

– طيب.. ما رأيك فى هذه الورقة ؟

وأخرج من مكتبه ورقة وقدمها للأستاذ.

– ما هذا ؟

– هل هذا خطك ؟

أخرج الأستاذ نظارته الطبية من جيبه وثبتها على أرنبة أنفيه وتفرس فى الورقة ثم قال :

● ما هذا ؟

– أنا الذى أسألك وعليك أنت الجواب، هل هذا خطك ؟

● الواقع لا أستطيع أن أقطع بأنه خطى من عدمه، ولكن الذى أذكره أنها طلبت منى فيما يشبه التوسل أن أكتب لها صيغة إعلان لأن حميدو طلب منها ذلك، باعتبارها قطعت مرحلة من مراحل التعليم، ولما كانت غير مستعدة وغير قادرة وغير مؤهلة، فقد طلبت منى إنقاذها حتى لا يغضب منها حميدو وأظن أننى كتبت لها الإعلان لكى انقذها من ورطتها.

– وهل من عادة أستاذ كبير مثلك أن يقبل كتابة مثل هذه الأعمال التافهة إذا توسل إليك أى أحد ؟

● فى الواقع أن الليلة التى سهرت فيها معها كانت لها ظروف خاصة، فقد كنت أشعر بضيق لوجودى فى هذا المنزل، ولم يكن زوجها حاضرا فشعرت بالقلق، وخشيت أن تكون هذه الزيارة هى أحد ألاعيب حميدو لتوريطى فى أمر ما، وقبلت أن أكتب لها هذا الكلام لكى أتمكن من الخروج ومغادرة المنزل.

– قرر حميدو أنه حضر متأخرا إلى المنزل بعد حضوره اجتماعا

لمجلس الإدارة ووجدك هناك مع الحاجة زيزى، وكنت مرتاحا ومطمئنا، بدليل أنك جلست معهما حتى ساعة متأخرة من الليل.

● فى الحقيقة أنا لا أذكر شيئا الآن من تفاصيل هذه السهرة، وما قررته الحقيقة بعينها.

- ما رأيك فى أننا ضبطنا فى أوراق الشركة اسمك فى كشف المرتبات ومثبت أمامه أنك تتقاضى عشرة آلاف جنيه فى الشهر؟

● هذا اختلاق وتزوير، لأننى لم أتقاض مليما واحدا منهم.

- ولكن حميدو وزوجته الحاجة زيزى ذكروا فى التحقيق أنك تقاضيت مرتب سنة كاملة تحت الحساب.

وهنا ثار الأستاذ وضرب المائدة بكفه وصرخ بأعلى صوته.

● أنا رجل شريف ولم يدخل جيبى مليم واحد من هذه الشركة أو من غيرها، وأنا مدين وأسألوا البنك الذى أتعامل معه، ولو كنت من هذا النوع الرخيص لجمعت الملايين.

وحاول المحقق أن يهدىء من ثورة الأستاذ وقال :

- كل ما أسعى إليه هو إظهار الحقيقة، ويهمنا أن نبرهن على أن صفحتك بيضاء من غير سوء، فأنت من رموز الأمة وأحد ضمائرها الحية، ولكنا نريد إظهار الحقيقة.

ولسنا فى خصومة مع أحد.

وطلب المحقق فنجان قهوة للأستاذ، ولكن الأستاذ أعتذر، كما اعتذر عن استمرار التحقيق وطلب تأجيله إلى وقت آخر واستجاب المحقق لطلب الأستاذ على الفور، وأمر كاتب النيابة بإغلاق المحضر فى ساعته وتاريخه على أن يستأنف التحقيق بعد أربعة أيام.

وإنصرف الأستاذ وهو لا يكاد يرى الطريق تحت أقدامه، كان مضطربا وعصبيا وشديد الغيظ. كيف استطاعت الحاجة زيزى الإيقاع به على هذا النحو، وهل هو ساذج إلى هذا الحد، لقد قضى عمره كله مهموما بقضايا الوطن، فكيف وصل به الحال إلى استدراجه إلى هذا

الفخ بتدبير ماسح أحذية وزوجته التى كانت قطاعا عاما على أرصفة القاهرة فى يوم من الأيام وهل الرأسمالية متوحشة إلى هذا الحد، لا ترعى حرمة ولا تعمل حسابا لكائن من كان؟

ولكن حميدو وزوجته ليسا من الرأسماليين، إنهما مجرد زبالة، والسقوط فى هذه الهاوية كان بسببه هو وليس بسبب الآخرين، لقد خانته شيخوخته ولعبت بأعصابه المرأة الفاجرة زوجة حميدو وقادته إلى مصرعه بفضل بعض الحركات التى ذكرته بشبابه الذى ولى منذ زمن طويل، المأساة أنه نسى نفسه وتوهم أنه فارس مغوار وأنه محل رعاية واهتمام ومطاردة الحاجة زيزى ولكن هل يلوم الحاجة زيزى؟ لقد كانت البنت تقوم بدور مرسوم فى مسرحية من تأليف حميدو، واتقنت دورها إلى الحد الذى جعل الأستاذ يتخيل أن زيزى تقوم بدور حقيقى على مسرح الحياة، وهذا ما اضعفه عندما وقع فى الفخ بهذه السهولة. إن ما حدث له ليس فضيحة فقط ولكنها فضحية ومأساة، فهو مرتش قبل مائة وعشرين ألف جنيه، لقد كان يتوقع خلال حياته الطويلة أنه سيقع فى فخ من هذا النوع، ولكن تقديره أنه كان سيقع فى الفخ نتيجة تدبير محكم من أجهزة مدربة على مثل هذا العمل، ولكنه وقع أخيرا فى الفخ بسبب مؤامرة من تدبير ماسح أحذية سابق فى قهوة كتكوت وزوجته التى كانت تعرض لحمها الرخيص على أرصفة القاهرة، وأوقعت من ؟

الكاتب الجهبذ والمفكر الكبير والناقد الذى يخشى قلمه كل الأدباء. وصل الأستاذ إلى منزله والقى بنفسه على مقعد فى الصالون وراح يدخن السيجارة تلو السيجارة، كان مهموما بحق، وكان يشعر بالنار تأكل قلبه وعقله، ماذا يمكن أن يفعله الآن لكى يمسح وصمة العار هذه من تاريخه، لا شىء يمكن أن يمحو هذا العار إلا قتل حميدو وزوجته، ولكنه لو فعلها ستكون الفضيحة أكبر وأعم، وسيعلم الجميع أن الأستاذ الخطير سقط فى فخ ماسح الأحذية، يالها من نكتة بايخة،

ولكن سـيضـحك لهـا الجمـيع، وهو يذكـر الآن يوم وقع فى قـبضـة الانجليز وقـادوه إلى معسكر اعتـقال فى منطقة فـايد، ولمح الغدر فى أعينهم، ولكنه لم يهتز لحظة واحد، ويذكر أيضا يوم أخذوه إلى معسكر الاعتقال فى الصحراء الغـربية وكيف أهانوه وعذبوه ومع ذلك لم يهتز لحظة واحدة، ويذكر أيضا يوم حاكموه أمام محكمة عسكرية استثنائية وحكموا بإعدامه وخفف الحكم بعـد ذلك إلى الاشغال الشاقة، ومع ذلك لم يهتـز لحظة واحدة، ها هى الأيام تدور به ولا يجـد مخرجـا لورطته الحالية إلا بقتل هذا الكلب حميدو والسيدة حرمه.

ولكن يستحق ما جرى له وما سوف يجرى عليه كان ضحية ماسح أحذية، ولـكن هل صحـيح أن حميـدو ماسح أحـذية؟ لقد ضـحك على الناس وضحك على البنوك وضحك على الدولة.

واستـدرج الأستاذ إلى فخ لا يجيـد نصبه إلا الأبالسة والشـياطين. هل هو صـحيح مـاسح أحذية؟ أم هو ملك المـرحلة وفيلسـوف الوقت ومفكر الزمان. ونام الأستاذ على مقعـده، وفى الصباح كان نعيه يحتل الصفـحة الأولى من كل الجرايد الكبـرى وكل الجرائد الصغـرى. مات الأستـاذ بعد حـياة حـافلة أمضاها فـى خدمة الفكر والأدب والـكتابة، وعاش حياته فى خدمة قضايا الوطن ومات من أجلها!!

١٠ ابن الدايرة!

عندما جاء سعد توفيق إلى قهوة كتكوت لأول مرة في حياته كان فى الثامنة عشرة من عمره، وكان قد انتهى من دراسته الثانوية واستعد لدخول الجامعة ودراسة المحاسبة فى كلية التجارة، ولكن هذه الدراسة لم تكن تستهويه، ولكنه كان يحلم بأن يكون نجما سينمائيا يشار إليه بأقلام النقاد، فقد كان وسيما على نحو ما، وكان وجهه مستديرا كوجه حسين صدقى وشعره كشعر أنور وجدى فهو ناعم ولامع وغزير، وكان يحلم بأن يصبح نجما سينمائيا لأنها المهنة الوحيدة التى بمقدورها الانتصار على نقطة ضعفه الوحيدة وهى خجله الشديد من صنف النساء وشعوره بالنقص فى حضرتهن. لذلك تتصور بعض الفتيات احيانا أنه أبكم، وبعضهن يخطئن التحليل فيعتقدن أنه شديد الغرور، مع أنه ـ يعلم الله ـ لا هذا ولا ذاك. ولكنه يشعر أحيانا عندما يجلس معهن أنه يتمنى لو عاد إلى بطن أمه. وإن كان ذلك الشعور لا يمنعه من اختلاس النظرات بين الحين والآخر للاستمتاع بما جادت به الطبيعة عليهن. شيء واحد فقط كان يفسد عليه أحلامه وهو قصر قامته. كان سعد توفيق قصيرا إلى درجة ملحوظة، لم يكن قزما ولكنه كان أقصر من الرجل العادى. ولكن النجم العالمى جيمس كاجنى كان أقصر منه بالتأكيد، والنجم العالمى ميكى رونى كان قزما. ولكن هل ينجح فى تحقيق أحلامه فيصبح نجما

سـينمائيـا فى قادم الأيام؟ عنـدما وقع بصـره ذات مسـاء على بعض الأدباء المـشاهيـر فى الركن المخـصص لهم بقـهوة كـتكوت تمنى أن ينضم إلى مـجلسهم، ولكـن هذه الأمنية تحـولت إلى رغبـة محـمومـة وهدف منشود عندما رأى المخرج المعروف أحمد خطاب يجلس معهم، صحيح أنه مخرج إذاعـى، ولكنه قدم عدة تمثيليات إذاعية اشـترك فيها عدد من الـنجوم المـشاهير. ولكـن خجله الطبـيعى منعـه من اقتـحام مجلس الأدباء، حـتى كان مسـاء عندما جـاء إلى القهوة نجم مـسرحى شهـير، ثم كانت اللحظة التـاريخية عنـدما جاء إلى القـهوة نجم الغناء عبـدالغنى السيـد، لابد من الانضمام إلى جلسـة الأدباء بأى ثمن وبكل ثمن. كان الـكاتب الشهيـر عشـماوى هو بداية سـعد توفيـق إلى عالم الأدباء. وكـان عشمـاوى قد حـقق شهـرة لا بأس بها عن طريق نـشر انتـاجه الأدبى على صـفحـات جريدة المـصرى أوسع صـحف مصـر انتشـارا وقتئذ. وكـان فى الوقت نفسه يعـمل موظفا بمـديرية التعليم، وكان يسكن فى نفس الشارع الذى يقع فيه بيت سعد توفيق.

وعن طريق صاحب مكتبة تقع بجـوار قهوة كتكوت تم ترتيب اللقاء بين سعـد والأستاذ عـشماوى، وقـدم سعد نفـسه لعشـماوى على أنه كاتب على أول الطريق ولديه مـحاولات يريد أن يستطلع رأى الأسـتاذ فيـها، وتناول عـشماوى كـراسة كـتب فيـها سعـد محـاولاته ووعده بقـراءتها وإبداء رأيه فـيهـا خلال أيـام، وتواعدا على اللقـاء فى قهـوة كتكوت، وهكذا أصبح سـعد من أعضاء جلسـة الأدباء وثبت أقدامه فى القعـدة وأصبح من نجومهـا فقد كان مـيسورا، واستطاع خـلال شهر واحد أن يقيم مأدبتين عامرتين لأعضاء الجلسة الأدبية، وكان لسعد أم فى الخمسين من عمرها سيدة مجتمع وتحتفظ بقسط من الجمال الذى بهر الناس يـوما ما، وسـرعان ما وقع الـشيخ عبـدالمجـيد فى هواها، صحـيح أنه كان غراما مـن طرف واحد، ولكن الشيخ عـبدالمجيـد كان فارسـا من فرسان هذا اللون من الغـرام، وكثيـرا ما كتب أشـعارا فى

محبوبته التى لا تعلم شيئا مما يجرى حولها. المهم أن الصلات توطدت بين سعد وبين أغلب أعضاء شلة الأدباء. كان الأستاذ سعفان يجد ضالته عند سعد فى عمليات الاقتراض التى اعتاد عليها لحل مشاكله المتعددة، وكان الأستاذ عبدالستار يلجأ إلى سعد كلما احتاج إلى الذهاب لمشاويره المتعددة فى أنحاء القاهرة، وكان الشيخ عبدالمجيد حريصا على زيارة سعد بين الحين والآخر فى منزله لكى ينعم بلقاء السيدة والدته لدقائق معدودة!

وهكذا صار سعد عضوا أصيلا بالشلة مما سمح له بمصاحبتهم فى زيارة النجوم والموسيقيين المشاهير فى بيوتهم، فسهر عدة سهرات ممتعة فى بيت الأستاذ الموسيقار الريانى، وتناول طعام العشاء فى بيت الصحفى الكبير الرافعى، ودعى مرة لحضور الحفل الغنائى الكبير للمطربة الشهيرة فاتن سعيد، وعندما تعرف على المخرج السينمائى الكبير أحمد عرفه كاد يطير فرحا، فقد حانت الفرصة ليضرب ضربته الكبرى. وكان أحمد عرفه يمر بضائقة مالية شديدة بعد فشل فيلمه الأخير. وقد وجدها فرصة سانحة للخروج من أزمته عندما أشار إليه سعد بأنه على استعداد للمساهمة فى الإنتاج إذا توافرت له فرصة للظهور فى فيلمه القادم. ونجحت محاولات الاختبار التى أجراها أحمد عرفة للوجه الجديد سعد، وكان وجهه صالحا للتصوير بدرجة كبيرة، وهى مسألة يتدخل الحظ فيها بنسبة كبيرة ، فكم من وجوه مليحة تظهر قبيحة على الشاشة، وكم من وجوه دميمة ليس أجمل منها فى الصورة، ومن حسن حظ سعد أن وجهه الجميل ظهر جميلا على الشاشة ولكن سعدا ـ لسوء الحظ ـ لم يستطع أن ينطق حرفا واحدا من الكلام الذى لقنوه إياه لكى ينطق به عندما دارت الكاميرا لتصويره. وأصيب بالكتمة عندما وقفت الفاتنة سناء طاهر أمامه، وضاعت كل محاولات المخرج فى تثبيت أقدامه، وهكذا انهارت كل أحلام سعد فى مشهد درامى عنيف.

عندما تأكد لسـعد أن حلمه القديم قد تبـخر وأن أمله فى أن يصبح نجما سـينمائيا هو عشم إبليـس فى الجنة. كان قد تخرج فى الجـامعة بدرجة مقـبول وأصبح فى النهاية مـحاسبا قانونيـا ويمكنه العمل فى دوائر الحكومـة براتب شـهرى يقل عن عـشرين جـنيهـا. ولكنه رفض الوظيفة وافتتح لنفـسه مكتبا للمحاسبة فى العمـارة نفسها التى تحتل قهـوة كتكوت الدور الأرضى بها. وأصـبح يظهر نادرا فى ركن الأدباء بعد أن تأكد فشله فى أن يصبح نجما من نجوم السينما.

ولكن طموح الإنسـان للظهور فى مجـال ما يكون عادة تعبـيرا عن طموح عـام، يمكن أن ينتقل بصاحـبه من مجال إلى مـجال. لذلك بدأت أعراض الاشـتغال بالزراعـة تظهر على المـحاسب سـعـد توفيق. ولكنه وأثناء تفكيره فى مـشاريعه الزراعيـة جاءه عرض غريب. عـرض عليه أحد الصـيادلة أن يظهـر فى إعلان عن دواء جديد يقـضى على ظاهرة الصلع، فـيظهر فى صـورة وهو حليق الشعـر، ثم يظهر فى الـصورة الثانية بشعره الجميل، وسـيكون هذا الإعلان خير دعاية للدواء الجديد، وعرضـوا عليه مبلغـا من المال كان كـبيرا بعـملة ذلك الزمان، ورفض سـعـد عرض الصيدلى لأنـه لا يقبل أن يقوم بحلق شـعره مهمـا كانت الأسباب والمبرارات ولكنه عاد فـقبل عندما عرف أنه ليس مضطرا إلى حلاقـة شعـره لأنهم قـادرون على إظهاره بصـورة الأصلع عن طريق عمل مكياج متقن له.

وضربوا له مـثلا بأحـدب نوتردام، الذى ظهر فيـه الممثـل العالمى الشهـير شـارلز لوتون على صورة أحـدب وأعور وأقـرع ولم يكن به شىء من هذا على الإطلاق. سـر سـرورا عظيمـا وشـعر بزهو شـديد عندما رأى سعد صـوره فى أفيشات كبيـرة على جدران العمارات وفى مساحات لا بـأس بها على صفحات الصحف، وفى الجـريدة المصورة التى تعرضـهـا دور السينما قبل عرض الفـيلم مباشرة لقد صـار نجما سينمـائيا ولكن دون كلام. ولو ظهـر سعد فى أيام السـينما الصامـتة

لكان أعرض شهرة من شارلى شابلن.

لأنه وسيم بدرجة كبيرة فى الصــورة وبشكل لم يكن سعد يتوقعه. وكانت الفتيات تتوقف عند صورته المثبتة على الحوائط وتتفرس فيها بإعجاب شديد.

ولكن إحســاسا ما داخل ســعد يجعله ينفــر من هذا العمل ويرفض الاســتمــرار فيــه. شعــر ســعــد بأنه اشــترك فى عــملية نصب لخــداع الجماهير. فهــو فى واقع الأمر ليس أصلع، كما أنه لم يتناول ولو قطرة واحدة من هذا الدواء المعجزة، الذى اخترع تركيبته الصيدلى إياه. إنها جريمــة نصب تتوافر لها كل الأركــان التى تؤكد تجريمهــا. ولذلك قرر سعــد أن يكف عن المــضى فى هذا الطريق مهــما كــانت المكاسب التى سيــحصل عليها. وبدأ طمــوحه ينحرف إلى وجــهة أخرى، فقــد ظهرت أعراض السياسة على سعد توفيق. وكان فى المرات القليلة التى يجلس فــيهــا فى ركن الأدباء يدخل فى نقــاش حاد مع البــعض حول أحــوال البلاد ومستقبلها، ولكنه كان حريصــا على أن يحدد موقفه كمستقل لا عــلاقة له بحــزب من الأحــزاب، كــان ســعــد يفــضل أن يكون فى مكان محايد بين الــجميع باعتبــار أن خير الأمور الوسط، وكــانت مصر على أبواب معركة انتخابية بعد إقالة حكومة الوفد فى نهاية الحرب العالمية الثــانية وبعــد أن تأكــد زوال الخطر الألمــانى وانحــسار المــد النازى، وخــروج قوات المــحــور من إفريــقيــا. ونصح البــعض ســعد توفــيق بالانضمام إلى الحزب السعدى أو الحزب الدستورى حيث إن الحكومة القادمة ستكون حكومة تحالف من الحزبين.

ولكن سعد اختار أن يكون مستقــلا وخاض المعركة الانتخابية على هذا الأساس.

ومن أجل الفوز فى المعركة الانتخــابية طبع سعد توفيق عدة ألوف من الصور من مــختلف الأحجام. واســتعان بصــورته التى ظهرت فى إعلان الدواء الذى يقضى على الصلع.

وغطى حـوائط الجيزة بصـورته وهو فى كل الأوضــاع، مرة وهو واقف على قـدميه، ومـرة وهو جالس خلف المكتب، ومـرة وهو يسند رأسه علـى قبضـة يده وكأنه فى حـالة تفكيـر. واكتفـى بكتابة عـبارة مختصرة تحت الصورة «انتخبوا ابن الدايرة». لم يوفق سعد توفيق فى انتخـابات مجلس النواب، وجـاء ترتيبـه الأخيـر بين المرشــحين، ولم يسترد تأمينه الذى دفعه قبل خوض المعركة. كانت الصور التى طبعها سعد توفيق أكـثر مما يجب، وعندما استفسـر منه وكيله الانتخابى عن مصـير هذه الصـور طلب منه تخـزينها لحـين الحاجـة إليهـا. وكانت الصور من الكثرة لدرجة أنه أفرد لها حجرة خاصة فى مكتبه لحفظها، وأصابت الدهشــة الكثيـرين من معارفــه بسبب تخزينـه للصور، ولكن الدهشة سرعان مازالت عندما أصدر سعد أوامره بإعادة تعليق الصـور فى كل أنحـاء الجيـزة لأنه قرر ترشـيح نفســه فى انتخـابات الغـرفة التجارية. ولكن نتيجة الانخابات لم تختلف كـثيرا عن نتيجة الانتخابات السابقة، فشل سعد بجدارة وكان ترتيـبه قبل الأخير بواحد. واستبدت الدهشــة بوكيله عـندما كـان أول قرار أصــدره بعـد أن عرف نتـيجـة انتخـابات الغرفة التجـارية، بطبع عدة آلاف من الصور وتخـزينها فى غرفة المكتب، صاح الوكيل مستنكرا:

– وهانعمل بيهـم إيه؟ هنخللهم. ثم إن أقرب انتخابات فـاضل عليها سنتين.

رمقه سعد بنظرة قاسية وقال له :

– مش بقولك أنت بتــاع انتخابات وبس، مفـيش عندك أى ذرة فهم للاقتصاد.

– ودى مالها ومال الاقتصاد بقى.

– إذا كانت الانتـخابات بعـد سنتين، يبقى لو طبـعتـهم الآن هنوفر الشىء الفلانى. ثم أنا لما أقولك حاجة تنفذها.

– حاضر يا فندم.

وصار من عادة أطفال الجيزة إذا علموا بأن هناك انتخابات على الأبواب أن يهرعوا إلى مكتب سعد توفيق ليحصلوا على صورة ثم يقوموا بالطواف فى أنحاء المدينة مرددين الهتاف الذى اعتادوا عليه: انتخبوا ابن الدايرة.. يا توفيق بالتوفيق.. وكان وكيل سعد يتولى توزيع قطع الشكولاتة على الأطفال، وأحيانا كان يوزع عليهم كراريس رسم وأقلام ألوان.

كانت آخر انتخابات خاضها سعد توفيق هى الانتخابات التى أسفرت عن فوز حزب الوفد وفاز فيها بأغلبية ساحقة، لذلك لم يكن هناك من هو أكثر سعادة من سعد توفيق عندما احترقت القاهرة وتمت الإطاحة بحكومة النحاس باشا وحل مجلس النواب. وشمر سعد عن سواعده فهو بالتأكيد سيكون له شأن في الانتخابات القادمة. وراح يستعد لهذا اليوم الموعود، غير أن آماله تحطمت كلها عندما أذاع الجيش بيانه الأول من إذاعة القاهرة.

●●●

يا لضيعة أحلامك يا سعد توفيق.. طول عمرك تكره الضبط والربط والأوامر والتعليمات، وها هى الدنيا ضاقت بك وضاقت عليك. وهذه السلطة الجديدة لا تحب الانتخابات ولا تشجعها، وليس من طبيعتها أن تمارس سلطتها على برلمان ونواب، ولكنها تكتفى بإصدار الأوامر وتطلب من الآخرين تنفيذ الأمر. عندما شعر سعد بالإحباط لجأ مرة أخرى إلى قهوة كتكوت، وحرص فى هذه المرة على أن يبتعد قليلا عن قعدة الأدباء، فمثل هذه القعدة لم تكن مضمونة العواقب، خصوصا وهؤلاء الأدباء يجيدون الثرثرة، وهو الأمر الذى يجب تجنبه فى مثل هذه الظروف، ولكن.. وبالرغم من حرصه الشديد والتزامه الحذر فقد جاءه الولد ريعو جرسون القهوة بخبر جعل النوم يفر من عينيه، أبلغه ريعو أن سيارة عسكرية توقفت إلى جوار رصيف القهوة ونزل منها ضابط له مهابة، وسأل عن الأستاذ سعد توفيق، ولما لم يجده أبلغ

ريعو بأنه سيعود مرة أخرى بعد أيام. وعبثا حاول سعد توفيق معرفة أى شىء عن حقـيقة هذا الضابط أو اسـمه أو مهمـته أو وظيفتـه. ماذا تخبىء لك الأيام يا سعد يا توفيق؟؟

لقد حرص طوال العمر على أن يبقى محايدا، لكن المشاكل لا تعرف الفرق، ولأن المصـائب مصابة بالعمى فقـد تصطدم بالأبرياء وتتفادى الذين يستـحقون الموت. بعد عـدة أيام كان سـعد يجلس داخـل القهوة بعيدا عن جلسة الأدباء عندما جاءه الـولد ريعو يحجل كالغراب، ثم قال له فى لهفة :

– الظابط جه.. الظابط جه.

نهض سعـد من مكانه متلهـفا لرؤية الضابط إيه، وهـو شديد القلق شديد الخوف، وإن تعمـد إخفاء خوفه بابتسامة مصطنـعة رسمها على شفـتيه، يا الله.. عندمـا وقع بصر سعـد على الضابط اشتـعلت ذاكرته الخامـدة وعادت إلى الحـياة.. يا الله.. سهـيل.. هكذا صاح سـعد باسم الضابط وهو غير مصدق ما تراه عيناه.

– فين أراضيك؟

رد الضابط فى هدوء :

– مسير الحى يتلاقى.

– مفيش كلام.

سحب سـعد صديقه الضـابط إلى حيث كان يجلس داخل القـهوة.. لكن الضابط توقف فجأة وقال لسعد :

– ما تيجى نقعد بره نشم هوا

ولكن سعدا أقنعه بالجلوس فى الداخل، فلما سأله الضابط عن السر وراء ذلك قال له :

– أنا بينى وبينك مش عاوز أورط نفسى فى أى حاجة غلط.

وسأله الضابط فى اهتمام :

– فيه حاجات غلط بتحصل هنا ؟

ورد سعد بصوت خفيض :

– لا ما حصلش لحد دلوقت، لكن أنا حريص أكون بعيد.

قال الضابط كأنه يصدر أمرا :

– على كل حال الاحتياط أحسن اليومين دول.

انهمك الرجـلان فى حديث عن أيام زمـان، أيام المدرسـة الثانوية، وضحكا فى وقت واحد عندما تذكرا صادق أفندى مدرس الكيمياء، ولم يفترق الرجلان فى أيام الصبا إلا عندما التحق الضابط بالكلية الحربية، بينما ذهب سعد والتحق بالجامعة.

– ولكن أين أنت الآن من هذا كله ؟

هكذا سأل سعد توفيق صديقه الضابط.

– أنا كـمـا تعلم كنت فى سـلاح المـدرعات، وأنا الآن فى الـقيـادة العامة. وقد جئت لك فى خدمة وأرجو التوفيق.

رد سعد فى ثقة :

– أنا حاضر وتحت أمرك، وأى خدمة استطيع أن أؤديها لك سأفعل بكل سرور.

شكره الضابط وأثنى عليه، ثم قال له :

– نصـيحـتى الوحيـدة لك أن تأخذ حـذرك دائما، فـالأيام القادمـة ستحمل مـعها الكثير، وأعداء الثورة على قفـا من يشيل فلا تتورط فى شىء.

وحكى له سـعـد كيف قـاطع قـعدة الأدباء حـتى لا يتـورط فى أى شىء. وكانت دهشة سعد كبيـرة عندما نصحه الضابط بأن ينفتح على الناس، وأن يجلس مع الأدباء وغيـرهم دون أن يورط نفسه فى شىء.. وقال له :

– إحنا مش عـبط ولا بريالة.. المـهم إنك تتـحفظ فى كـلامك وفى سلوكك وبس.. وكل واحد متعلق من عـرقوبه.. وبعدين أنا عاوز أقولك حاجة.

أصغى سعد بكل جوارحه وقال :

- اتفضل.

همس الضابط قائلا :

- إحنا محتاجين مدنيين معانا، مش معقول العسكر بس همه اللى هيحكموا البلد. ولذلك أنا فكرت فيك وجيتلك.

التقط سعد العبارة الأخيرة وتساءل فى ريبة :

- محتاجينهم فى إيه ؟

- فى حاجات كتيرة المهم إحنا عاوزين معانا ناس نضاف وسمعتهم كويسة، وبعدين المستقبل دا بإذن الله. والجماعة اللى هيكونوا معانا بإذن الله، ممكن يبقوا مستشارين للحكومة، وممكن يبقوا وزرا.

وزرا.. هكذا هتف سعد بينه وبين نفسه.. آه لو صحت الأحلام يا سعد.. وزير وحاشية وحراس وكشك أمام البيت.. ووفود لا تنقطع واجتماعات وتصريحات .

وتوقف سعد عن التحليق بأحلامه فجأة، وارتسمت على ملامحه أطياف حزن مفاجىء. ياقوة الله.. هل تتحول هذه الحركة إلى عقبة فى طريق مستقبله، هل سيعثرون عليها عندما ينقلون فى تاريخه وماضيه، صورته على الجدران فى أنحاء المدينة، مرة وهو أصلع ومرة وهو بشعره الناعم الغزير؟ ولكنها كانت أيام الشباب وفى الشباب ياما نزوات وتجاوزات.

وعلى العموم.. ربنا يستر!

١١ نرجس ومندوب القيـــادة!

عاش المحاسب توفيق يحلم أحلاما سعيدة بعد لقائه بصديقه الضابط على قهوة كتكوت. من كان يتصور أن حلم توفيق سوف يتحقق على يد صديق الصبا والشباب؟ الأمر الذى حير توفيق هو أن صديقه الضابط لم يكن يبدى اهتماما من أى نوع للأحداث السياسية، كان بطلا رياضيا مارس الملاكمة ،حمل الأثقال ثم انحصر اهتمامه بعد ذلك فى كرة السلة، ولكنه لم يحقق فيها نجاحا كبيرا، واستمر يلعب فى فريق المدرسة ولكنه لم يتمكن من الالتحاق بأية فرقة من فرق النوادى الكبيرة. والسبب فى ذلك أنه كان شديد الشغف بعقد صلات متعددة مع عدد كبير من البنات. وبسبب هذه الهواية تراجع دوره كثيرا حتى فى فريق المدرسة، فأصبح خارج التشكيل الأساسى وضمن الاحتياطى فترة طويلة من الوقت، قبل أن يعلن احتجاجه وينسحب بإرادته من الفريق، ولكنه سحر الحياة وسرها أن المقدمات لا تدل بالضرورة على النتائج. وها هى السياسة تسعى لصديقه بعد الثورة فيجد نفسه رغم أنفه فى قلب العواصف السياسية. ولكن لأنه ابن ناس وحريص على العيش والملح، فقد سعى إلى صديقه القديم ليقاسمه المسئولية ويشركه معه فى حكم البلاد.

وحلق توفيق بخياله بعيدا. هل يحالفه التوفيق فيصبح واحدا من الحكام؟ وما المانع أن يصير توفيق بين الحكام؟ وكما صار شولح بين

الأنبياء. وجلالة الملك فؤاد نفسه كان من «الصياع»، ولكن الظروف أجبرت السلطة البريطانية على الاتصال به وساومته على حكم مصر ومنحته لقب السلطان. وتوفيق لا يطمع فى أن يكون سلطانا، يكفيه أن يكون محافظا أو وزيرا، وهو وضع أكثر أبهة بالتأكيد من عضو مجلس النواب! مرت أيام كثيرة قبل أن يظهر الضابط مرة أخرى فى قهوة كتكوت. وكان قد حدث تطور خطير فى سلوك المحاسب توفيق كان قد عاد مرة أخرى إلى توثيق علاقته بشلة الأدباء نزولا على نصيحة صديقه الضابط. وعندما جاء الضابط وجد توفيق مشتبكا فى مناقشة حامية مع أحد الأدباء عن ضرورة تطبيق الديمقراطية قبل الدخول فى صراع مع الانجليز لإنهاء الاحتلال الانجليزى، وكان هذا هو رأى الأديب، بينما كان من رأى توفيق أن الجلاء أولا لابد أن يكون هدف أية حكومة. ألقى الضابط السلام على الجميع وكأى صديق قديم سحب الضابط أحد الكراسى وجلس، والتقط الخيط وواصل الحديث الذى كان يجرى قبل حضوره. ولكنه اضطر إلى التوقف عندما نهض الناقد عبدالستار ورفع يده مودعا دون سابق إنذار. وقال الضابط معلقا :

- إيه الحكاية؟ إذا جاءت الشياطين ذهبت الملائكة ؟

ورد الأستاذ الناقد بنبرة حاول أن تكون ودية :

- بالعكس، دانا كنت نفسى أقعد معاك، بس الحقيقة أنا كان ورايا مشوار مهم جدا وكنت ناسيه.

والحق أن الأستاذ الناقد كان لا يخفى عداءه للثورة وكان يطلق عليها من باب السخرية «الحركة المباركة»، ومنذ إعلان بيانها الأول كف عن الكتابة تماما، وربما كان يمارس الكتابة ولكنه كان يرفض نشر ما يكتبه. وكتب ونشر مرات قليلة ولكن فى مجلات أدبية تصدر فى بيروت. وحاول بعض محررى الصحف أن ينتزغوا منه ولو عدة كلمات عن تأييده للثورة ولكنه كان يرفض بإصرار، متعللا بأنه أديب وليست له علاقة بالسياسة!

وتركت هذه الحركة من جانب الناقد أثرا في نفس الضابط، ودفعه هذا الشعور إلى مصارحة الجالسين بأنه تطفل عليهم ويخشى أن يكون تسبب في مضايقتهم، وأكد لهم أنه لن يتطفل على مجلسهم مرة أخرى، ولكن الأستاذ عشماوى نهض من مجلسه واقترب من مجلس الضابط وقال له في لهجة ودودة :

– يا خبر أبيض، دا احنا كنا فاهمين إن الحساسية المفرطة هي من متعلقات الأدباء فقط، لكن إنت النهاردة أضفت إلى علمنا معلومة جديدة، وهي أن الضباط أكثر حساسية من الأدباء!

ثم راح يشرح للضابط كيف أن الأمور بين شلة الأدباء تمضي بدون حساسيات. وأكد له أن أحدهم قد ينصرف فجأة أثناء مناقشة حامية هو نفسه الذى فجرها.

ووجدها الأستاذ عشماوى فرصة فراح يشيد بدور الجيش في تحرير مصر من الفساد السياسي والمالي، ولكنه شديد الدهشة لأن الثورة لم تهتم بالاتصال بالمثقفين لمعرفة رأيهم في حاضر البلاد ومستقبلها، ثم نظر إلى الضابط نظرة ذات مغزى وقال له :

– حضورك النهاردة وقعدتك معانا، أنا شخصيا بأعتبر ذلك أول لقاء حقيقي تقوم به الثورة بالمثقفين.

سر الضابط سرورا عظيما بحديث الأستاذ الأديب، ولذلك كان حريصا على أن يعرف كل شيء عنه بعد أن نهض الأدباء وانصرفوا من القهوة. سأل الضابط صاحبه المحاسب عن شخصية الأديب صاحب الحديث الممتع.

وسر أكثر عندما علم أنه موظف حكومة في الصباح ومحرر ليلا في إحدى الجرائد الصباحية الكبرى، كما أنه عالم كبير في الفنون الشعبية، وله برامج ناجحة جدا في الإذاعة والتليفزيون. عندئذ قال الضابط لصديقه المحاسب بطريقة تشبه الأمر :

– فليكن هذا الأستاذ هو أول العشرة الذين سيقع اختيارك عليهم.

وظهر على ملامح المحاسب أنه لم يفهم شيئا، فقال الضابط :

– نسيت أن أقول لك أن مهمتك الآن ستبدأ باختيار عشرة أفراد مدنيين من أصحاب السمعة الطيبة والنشاط الجماهيرى لحشدهم خلف الثورة من أجل خدمة الشعب وتنفيذ برامج الثورة.

وتساءل المحاسب الذى كان قليل الخبرة بالعمل السياسى :

– وهل يكفى هؤلاء العشرة للقيام بهذه المهمة الجليلة ؟

وقال الضابط موضحا :

– نسيت أن أخبرك أيضا بأن لدينا الآن ألف مواطن مثلك، ومطلوب من كل واحد منهم تشكيل خلية من عشرة.

وبعد فترة صمت قال المحاسب :

– وهل هؤلاء العشرة آلاف مواطن فيهم الكفاية ؟

وابتسم الضابط ابتسامة عريضة وقال :

– أنا فى الحقيقة غير مأذون بأن اكشف لك السر كله. ولكن سأكشفه لك وكلى ثقة أن ما أقوله لك الآن سيظل سرا بيننا.

وهز المحاسب رأسه عدة هزات سريعة وقال للضابط :

– سرك فى بير.. اطمئن.

قال الضابط وهو يهمس فى اذن المحاسب :

– هؤلاء العشرة أعضاء الخلية، سيكون على كل واحد منهم تجنيد عشرة، وسيقوم كل عشرة بتجنيد عشرة لكل واحد، وهكذا لو نجحت الخطة سيضم التنظيم عدة ملايين فى فترة وجيزة.

ياقوة الله، فكرة بسيطة ولكنها جهنمية. كيف غابت هذه الفكرة عن حزب الوفد وبقية الأحزاب الأخرى. عشرة فى عشرة فى عشرة يتكون منهم تنظيم أقوى ألف مرة من كل الأحزاب التى عرفها البشر.. وسيكون طبعا لمن جند العشرة الأوائل شرف التواجد فى الصدارة وعليه واجب القيادة لتحقيق النجاح لبرامج الثورة!

أصبح من عادةِ الضابط أن يحضر إلى قهوة كتكوت بين الحين

والآخر. وكان الحاضرون من الأدباء يفسحون له مكانا بينهم، كما كان المعلم كتكوت حريصا على تقديم المشروبات بنفسه للضابط، الذى اشتهر بين رواد القهوة بأنه مندوب القيادة.

وتأكدت هذه الإشاعة عندما حقق رجاء المعلم كتكوت بتوظيف أحد أبنائه فى شركة الدخان التى تقع فى دائرة مدينة الجيزة. وقد تم تعيينه بسرعة وبوظيفة ملاحظ وبراتب قدره عشرة جنيهات شهريا، وهو مبلغ يقترب كثيرا من مرتب خريج جامعة، ولم يكن ابن المعلم كتكوت يجيد القراءة والكتابة.

عندما فاتح المحاسب توفيق أستاذ الفن الشعبى فى موضوع تجنيده فى الخلية، أبدى ترحيبا شديدا بالفكرة وحماسا أشد فى الانضمام إليها. وأكد للمحاسب أنها فكرة وجيهة لو تم تنفيذها على الوجه الأكمل فستكون قاعدة صلبة لحكومة الثورة تستطيع من خلالها الانطلاق لتحقيق حلم الجماهير. وأبدى أسفه لأن وقته ضيق لسعيه المتواصل من أجل لقمة العيش، ولكنه وعد بتنظيم وقته لكى يتسنى له أن يلقى بنفسه فى بحر الثورة كلما وجد الفرصة لذلك. ووصلت الرسالة إلى المحاسب توفيق الذى فاتح صديقه الضابط بأن الاستاذ سيكون أكثر فائدة لو رتبنا له وظيفة واحدة تؤمن له دخلا يكفيه، وقد رد الضابط باختصار :

– سأحاول وسأقوم بإبلاغك عما قريب.

انشغل المحاسب توفيق بتجنيد بقية العشرة ولم يتمكن من تجنيد أحد من شلة الأدباء إلا أستاذ الفن الشعبى وأديب آخر كان يعمل موظفا بالحكومة ويكتب بعض القصص أحيانا ينشرها فى مجلة أدبية محدودة التوزيع. أما الأدباء الآخرون فقد ترددوا فى الانضمام وبعضهم رفض الفكرة تماما وانقطع عن الحضور إلى القهوة كما أن الأستاذ الناقد الذى غادر القهوة لحظة حضور الضابط وانضمامه إلى الجلسة أول مرة، لم يظهر مرة أخرى فى القهوة واختفى تماما فلم يره

أحد بعد ذلك!

ومرت عدة أسابيع سأل المحاسب صديقه الضابط عما إذا كان قد وجد حلا لمشكلة أستاذ الفن الشعبى وجاءه الجواب :

– اتركه الآن كما هو، وعندما يأتى الوقت المناسب سيكون الحل جاهزا .

وعندما سأله المحاسب :

– ومتى يكون الوقت المناسب ؟

قال الضابط بحسم :

– لا أعلم، ولكنى أريدك أن تعلم أننى لا أحكم ولكننى أنفذ أوامر!

أقلقت هذه الكلمات المحاسب توفيق، ما معنى أنه لا يحكم ولكنه ينفذ أوامر ؟ وبالرغم من القلق الذى استبد به إلا أنه راح يواصل جهوده لتجنيد العشرة المكلف بتجنيدهم.

ومع ذلك لم يستطع تجنيد أكثر من خمسة أفراد. اثنان من الأدباء، واثنان من زملائه المحاسبين وفراش مكتبه الذى لم يفهم شيئا، ولكنه أبدى ارتياحا لأنه سيكون «مع الأستاذ» فى المكان الذى يتواجد فيه!

ثار صديقه الضابط عندما علم أنه فشل فى تجنيد العشرة، وقال فى غضب :

– كنت شديد الثقة فى مقدرتك على سرعة إنجاز هذه المهمة، ولكنك للأسف الشديد تعثرت لسبب غير مفهوم.

ورد المحاسب سعد توفيق :

– فى الحقيقة الناس تخشى الارتباط بالثورة لأنهم لا يضمنون استمرارها.

وقاطعه الضابط قائلا :

– وهل هذا هو شعورك أنت الآخر ؟

ورد توفيق وقد استبد به الخوف :

– أنا لا أعتقد إن فيه حد بيحب الثورة قدى.

- لو كان دا حقيقى يا توفيق كان الناس لبوا دعوتك.
- إذا كنت مش مصدقنى يبقى بلاش أتعب نفسى واشتغل معاكو.
ابتسم الضابط وقال لصديقه المحاسب :
- إيه الحكاية، انت النهاردة مش زى عوايدك.
- تمتم المحاسب بكلام غير مفهوم فى البداية ثم قال بصوت مسموع :
- إذا كنت بتشكك فى ولائى للثورة يبقى الواحد يقعد فى البيت أفضل.

حاول الضابط تهدئته بكلام معسول ولكن المحاسب أبدى رغبته فى العودة إلى منزله لشعوره بالارهاق، وعندما وقف الضابط للانصراف، وضع كفه على جبهة صديقه، وقال له فى ود :

- دول شوية برد روح نام واشرب لمون وهتروق.
ثم قال له وهو يبتعد :
- ها اتصل بيك بالتليفون عشان اطمئن عليك.

عاد توفيق إلى المنزل بالفعل وفى نيته أن يدخل سريره وينام، ولكنه وجد أمه فى انتظاره ومعها خطاب. وقبل أن يفض غلافه سألها:

- منين ؟
- ما عرفش يا بنى - البواب جابه وقال من واحدة ست.

ست!! منذ أيام الدراسة فى الجامعة لم يكن له علاقة بأى ست.

أسرع بفض الغلاف وألقى نظرة على الخطاب نفسه، فاكتشف أن الورق بلون البنفسج. ولم يكن بالخطاب إلا عدة كلمات قليلة «عاوزة أشوفك ضرورى لأمر هام إذا كنت لسه فاكرنى» يا للمفاجأة.. التوقيع: نرجس.

يا سبحان الله، نرجس مرة أخرى. ترى كيف يكون حالها الآن؟

لابد أنها تزوجت وأنجبت أطفالا كثيرين. لقد كانت هى الأنثى الوحيدة التى كان لا يشعر معها بخجل. وكان يجالسها ويحدثها، وفى

مرات كثيرة تجرأ ووضع يده على كتفها، ومسح براحة يده على شعرها. ولكن لماذا تذكرته بعد كل هذه السنوات؟ وما هى الخدمة التى تريدها؟ من حسن الحظ أنها سجلت رقم تليفونها على الخطاب. أدار القرص وطلبها. وجاءه صوت عذب كما عرفه من قبل، صوت أنثى عاشت طفولة ناعمة وشبابا مرفها، أبدت رغبتها فى أن تراه، فسألها أن تحضر إلى منزله :

– أنا معايا والدتى فى البيت ومافيش حد تانى. اتفقا على الموعد.. الخامسة بعد الظهر. ألقى توفيق نظرة على نفسه فى المرآة، واضطرب عندما اكتشف أن ذقنه طويلة وشعر رأسه لم يعرف طريقه إلى الحلاق منذ فترة. وألقى نظرة على الساعة، كانت تشير إلى الثالثة بعد الظهر. طلب من والدته أن توقظه من النوم فى الرابعة تماما، ودخل سريره وحاول النوم ولكنه لم يفلح. وظل يستدعى النوم دون جدوى ولم توقظه أمه فى الرابعة لأنه غادر سريره وحاول النوم ولكنه لم يفلح. وظل يستعدى النوم دون جدوى ولم توقظه أمه فى الرابعة لأنه غادر سريره فى الثالثة والنصف. ودخل إلى الحمام فاغتسل وحلق ذقنه، ثم ارتدى بدلة أنيقة كان من عادته أن يرتديها فى المناسبات السعيدة. وطلب فنجان قهوة وجلس يتصفح مجلة أسبوعية ويعد الدقائق والثوانى فى انتظار نرجس. العجيب أنها كانت دائما تنقذه من مواقف محرجة. ولولا موعدها لكان الآن غارقا فى بحار من القلق بسبب ما جرى بينه وبين صديقه الضابط.

وبسبب فشله فى تجنيد عشرة أشخاص يتحمسون له وللثورة.

إنها مشكلة حقيقية لأنه فى الواقع لا يعرف أشخاصا كثيرين وهو شخصيا يتحرك فى دائرة ضيقة بالرغم من أنه يرشح نفسه فى كل الانتخابات، وأخرجه من تأملاته وصول نرجس، سمع رنين الجرس وشاهد خيالها من خلف زجاج النافذة. وعندما فتح لها الباب ووقع نظره عليها كأنه رأى شبابه يعود إليه، نرجس كما كان يعرفها أيام

الجامعة. هي هي لم تتغير، صحيح أن الزمن ترك بصمة هنا وبصمة هناك، ولكنها لا تزال تحتفظ بحسنها ودلالها. سألها عن أحوال أسرتها الصغيرة.. أولادها وزوجها. واكتشف أنها مثله لم تتزوج وليس لها ولد.

واكتشف أيضا أن والدها توفي وشقيقها الوحيد تزوج، وتعيش مثله مع والدتها المريضة. وتعمل في الجهاز المركزي للمحاسبات. ولكنها مظلومة وتعاني من الاضطهاد، فالذين تخرجوا بعدها يتولون مناصب مهمة وحساسة في الجهاز الذي تعمل فيه. والسبب أنها بلا ظهر يحميها. وقد فكرت في أن تلجأ إليه لعله يستطيع أن يتدخل من أجلها لكي تحصل على حقوقها المشروعة.

وأصابته دهشة شديدة لاعتقادها أنه يستطيع خدمتها، وقال لها وهو يدقق النظر في ملامحها :

– ليس أسعد مني لو استطعت تقديم خدمة لك.. ولكن كيف ؟ أنت ربما لا تعلمين أنني أدير مكتب محاسبة ولا أشغل مركزا حكوميا. وليس لي علاقة بأحد في الجهاز المركزي للمحاسبات.

نظرت نرجس نظرة ذات معنى لتوفيق وقالت في أسف :

– ياه.. دانت ماتغيرتش.. ولا عمرك هاتتغير.

نظر إليها توفيق ببلاهة وقال :

– قصدك إيه مش فاهم.

– قصدي إنك طول عمرك أناني.

صاح توفيق مستنكرا :

– أنا أناني يا نرجس ؟!

نهضت نرجس من مكانها وقالت بغيظ :

– أنا فعلا كنت غلطانة لما فكرت أجيلك في تلك اللحظة كانت الأم قد دخلت بصينية القهوة، فنظرت إليهما وقالت :

– إيه يا توفيق.. إزاي تزعل ضيفتك ؟

وقال توفيق :

– أنا يا ماما!! والله مازعلتها.

وقالت نرجس وهى تحاول الإنصراف .

– طيب يا جماعة، استأذن أنا بقى.

وقالت الأم منزعجة :

– ياخبر.. وماتشربيش القهوة بتاعتى يا بنتى!

مد توفيق يده فأمسك بذراع نرجس وقال لها :

– طيب أقعدى بس فهمينى.. انت زعلت ليه ؟

– ما تعرفش ليه ؟ مانا بقولك أنا جيالك فى طولك وفى عرضك، تقوم تقوللى أنا ما عرفش حد فى ديوان المحاسبة. يا سلام.. ما انت تعرف الناس اللى يقدروا يجروا الهرم الأكبر من مكانه.

صاح توفيق مندهشا.

– أنا !!

– أيوه أنت.

ضحك توفيق ضحكة هستيرية وقال :

– طيب قوليلى همه فين ؟

– يا سلام.. مندوب القيادة.

سرح توفيق بعيدا ثم عاد إلى نفسه وقال :

– قصدك..

قاطعته نرجس قائلة :

– أيوه قصدى.

نهض توفيق على قدميه وعض أصبعه الكبير عضة تركت أثرا على الجلد وتنهد تنهيدة حارة وقال كأنه يتحدث لنفسه :

– أما شىء غريب خالص.

١٢ على سكة عرابى!

غرق المحاسب توفيق فى أفكار شتى، لدرجة أنه لم يشعر بنرجس وهى تغادر المنزل، هل علاقته بصديقه الضابط أصبحت معروفة للجميع؟

وهل صديقه يحتل موقعا فى قمة المسئولية يسمح له بفعل ما يشاء؟

لقد تصور المحاسب توفيق أنه مجرد ضابط صغير، وقد يكون له موقع فى جهاز حساس، ولكن نفوذه لا يتعدى أبعد من مرمى حجر. ومع ذلك كان توفيق سعيدا بصداقته فى حدود وضعه كما تصوره.

ولكن لو كان صديقه له كل هذا النفوذ، فتوفيق يجب أن يقطع علاقته به على الفور. فالمحاسب توفيق حرص طوال العمر على المشى جوار «الحيط»، وصداقته بمسئول صغير عواقبها بسيطة، ولكن عواقب مصادقة الكبار مدمرة. والناس قد تغفر للكبير ولكنها لا تغفر لبطانته. والفكرة عنهم دائما أنهم إما متربحين وإما منافقين. والمحاسب توفيق لا يسمح لنفسه أن يكون فى هذا الوضع. ما العمل الآن؟ وهل يمكنه الانسحاب فى هذا الوقت؟ وما هو السبيل إلى تحقيق هذا الانسحاب دون إثارة غضب صديقه الضابط؟ لأن عواقب مثل هذا الانسحاب ستكون رهيبة، خصوصا إذا صحت مزاعم هذه السيدة التى ظهرت فجأة فى حياته وكأنها شبح من أشباح الماضى.

وعلى مدى أسبوع كامل لم يهنأ توفيق بفترة نوم هادئة، ونسب هذه الحالة لانتفاخ فى المصران الغليظ، ولكن الطبيب الذى عرض نفسه عليه أكد له أن حالته العصبية المتوترة هى السبب فى انتفاخ المصران الغليظ. ولما عرف المعلم كتكوت بمرض توفيق بيه المحاسب أمر الولد ريعو بعدم تقديم أى مشروبات للبيه ما عدا الينسون والنعناع. وعندما حضر المحاسب توفيق إلى القهوة مساء تلقاه المعلم كتكوت بالأحضان ناصحا إياه بشرب الينسون والنعناع مضيفا :

– عشان نشوفك زى الوردة «المفتحة وترجع لقعدتك اللى حرمتنا منها، وكمان عشان تفوق للراجل الطيب صاحبك اللى كان عامل زى اليتيم وانت عيان ونايم فى البيت.

تساءل المحاسب توفيق عن هذا الصديق الذى كان أشبه باليتيم أثناء مرضه، وأجاب المعلم كتكوت:

– الراجل صاحبك الضابط، دا راجل أمير قوى وابن ناس وينحط ع الجرح يبرد!

واستبدت الدهشة بالمحاسب توفيق وسأل المعلم كتكوت :

– انت كنت تعرف الضابط قبل كده؟

وأجاب المعلم كتكوت على الفور :

– وهاعرفه فين ؟ دنا عمرى ما شفته غير هنا، لكن الكتاب يبان من عنوانه، وهو راجل سمح وباين على وشه إنه ابن ناس طيبين.

وسكت المعلم كتكوت قبل أن يعاود الحديث قائلا :

– دا غير بقى إنه راجل مسنود وإيده طايلة.

وحدق المحاسب توفيق فى عينى المعلم كتكوت وسأله :

– وانت عرفت إزاى إنه مسنود وإيده طايلة ؟

مال المعلم كتكوت على أذن المحاسب توفيق وهمس له المخبر عبد ربه قاللي

ورد المحاسب توفيق ساخرا :

– هوه عبد ربه بقى مدير المباحث ؟

– يا أستاذ ـ يحط سره فى أضعف خلقه. ثم هوه عرف من الخدمة اللى متعينه له.

– خدمة إيه؟

– حراسة، حراسة فى البيت وحراسة فى الشغل وحراسة شخصية، يعنى هوه محروس الـ ٢٤ ساعة. ودا معناه إنه راجل تمام ويفوت فى الحديد.

يفوت فى الحديد ـ يا دى الكارثة اللى حطت على رأسك يا توفيق يثاب الرجل رغم أنفه، ويذهب إلى اللومان رغم أنفه أيضا. إذن الحكاية صحيحة وما ذكرته نرجس هو الحقيقة. وكل الناس تعرفها حتى المعلم كتكوت، بينما توفيق وحده هوه اللى نايم على ودانه. وكأنه أطرش فى زفة! ولكن توفيق لا يمكن محاصرته ولا يمكن فرض وضع معين عليه.. خصوصا إذا كان توفيق يرفضه. وسيجرب توفيق ألف وصفة وسيسلك ألف طريق لينطلق من القفص الذى يوشك على دخوله بقدميه وفرح المحاسب توفيق عندما أقبل فى اليوم التالى على مجلسه فى القهوة فوجد الأستاذ عشماوى يجلس وحده على غير عادته. واعتبر توفيق وجود الأستاذ وحده فرصة هيأتها له السماء ليستطلع رأيه فى هذه المشكلة التى تنغص عليه حياته. وبعد أن شرب القهوة مال على اذن الأستاذ وهمس له بما يقلقه، ولزم الأستاذ الصمت فترة من الوقت راح أثناءها يعض على شفتيه العليا ويرعش حاجبيه ويشفط أنفاسا عميقة متلاحقة من السيجارة. ثم قال :

– وانت خايف من إيه يا أستاذ توفيق؟

ورد توفيق على سؤال الأستاذ عشماوى :

– أنا مش خايف، بس أنا راجل محاسب وأحب أعمل حساباتى قبل أى خطوة أقدم عليها يا أستاذ.

وقال الأستاذ وهو يضغط على الكلمات :

- شىء جميل، بس حسابات الحياة تختلف كثيرا عن حسابات البنوك والشركات. وبعدين شخصية عامة زيك ما يصحش تقدر البلا قبل وقوعه.

- يعنى عاوزنى استنا البلا لحد ما يقع.

وأرعش الأستاذ حاجبيه بعصبية شديدة وقال :

- ويقع ليه، مش ممكن يحصل العكس. والراجل صاحبك ده ربنا ينفخ فى صورته هو والجماعة اللى معاه وينهضوا بالبلد الغلبانة دى، مش يمكن ربنا يجعل تحقيق الخير على ايديك يا أستاذ توفيق وبعدين لما يكون جنب الراجل المسئول شخص زيك انت، مش أحسن ما يلزق له حد من الصنف التانى اللى لا ذمة ولا ضمير.

ثم صمت لحظة قبل أن يقول :

- لكن أنت عرفت إزاى إن صاحبك دا مسئول كبير؟ منه هوه؟

هز توفيق رأسه بالنفى. فسأله الأستاذ :

- أنت متأكد ؟

هز توفيق رأسه بالإيجاب.

فى تلك اللحظة كان حضرة الضابط قد غادر سيارته وأقبل عليهما، وعندما صافح توفيق وجده فى حالة ليست على ما يرام، فسأله :

- انت مريض واللا إيه يا توفيق ؟

وأجاب الاستاذ عشماوى على سؤاله :

- دا شوية برد، بس توفيق محتاج يغير هوا.

- بسيطة، روح اقعدلك أسبوع فى أسوان.

- وهاروح إزاى بس ؟

- يا سيدى حتدبر ـ ما تعتلش هم.

- أنا قصدى هاجيب وقت منين، دنا حتى أجازتى خلصت.

- ودى كمان مالكش دعوة بيها.

وتدخل الأستاذ فى الحديث قائلا لتوفيق :

– يا أخى إنوى بقى، وإذا كان لازملك ونيس أنا مستعد أروح معاك.. وبعدين أنا بقالى زمن طويل ماشفتش أسوان.

وقال الضابط على الفور :

– خلاص اتفقنا.. أنا حادبر كل حاجة، واعملوا حسابكو تسافروا بعد بكرة.

وحاول توفيق الكلام، ولكن الضابط أشار له بالصمت قائلا :

– مش عاوز كلام كتير، إحنا اتفقنا.

وأضاف الأستاذ عشماوى :

– أنا مع حضرة الضابط.. انت محتاج للرحلة دى يا توفيق. على الأقل عشان تفكر بهدوء وفى جو هادئ.

ونظر توفيق نحو الأستاذ الأديب نظرة عاتبة، فقد تصور أنه سيكشف ستره للضابط، ولكن الأستاذ واصل كلامه قائلا :

– أصل توفيق فى رأسه حاجات كتير حلوة وعاوزينه يطلعها.

وختم الضابط الحديث قائلا :

– أهو دا اللى احنا محتاجينه، ودا كمان اللى احنا عاوزينه.

●●●

فى القطار الذى أقلهما إلى أسوان وجد الاثنان فرصة للحديث فى موضوعات شتى. كان توفيق شديد القلق من مخاطر الرحلة المقبلة، خصوصا والمغامرة ليست من طبعه. وهو يفضل الحياة فى الظل مع الأمان، على الوقوف تحت الشمس مع احتمال تعرضه للأذى فى أى وقت. أدرك الأستاذ عشماوى ما يعتمل فى نفس المحاسب، فانبرى يهدئ من روعه قائلا :

– خوفك ده مالوش أى مبرر، وراجل زيك أنت كان لازم يفرح لأن الأقدار هيأت له هذه الفرصة التى قد لا تتكرر. والحياة كما تعلم يا صديقى هى فرصة واحدة إما أن تدركها وتتشبث بها وإما أن تمر بك وتمر عليك! ثم أنت خايف من إيه؟ وهيحصل إيه؟ ها يخدوك

السجن كام يوم أو كام أسبوع.. وفيها إيه؟ عرابى انسجن واتنفى وسعد زغلول حصل له نفس الشيء، وغاندى اللى خلق الهند الحديثة قتلوه. ومافيش حلاوة من غير نار يا أستاذ توفيق. ثم انت راجل فيك مواهب كثيرة وعندك استعداد حقيقى لخدمة الناس، والدليل على ذلك اشتراكك فى كل الانتخابات اللى جرت فى مصر يبقى موقفك الأخير دا مش منسجم مع حركتك السابقة، مش كده وللا إيه ؟

لزم توفيق الصمت وراح يفكر فى كلام الأستاد عشماوى. هل يترك نفسه لاقتحام المجهول وليكن ما يكون؟ أم يستجيب لطبيعته فيعتذر لصديقه؟ وهل هو صحيح مهيأ لهذه المهمة كما قرر الأستاذ عشماوى؟ وإذا كان هو كما وصفه الأستاذ عشماوى، فلماذا لا يشعر هو نفسه بأنه هذا الشخص الذى يراه الأستاذ عشماوى وهو الأديب والمفكر الكبير؟ وهل يكذب الأستاذ عشماوى أم يقول الحقيقة؟ ثم.. لماذا يكذب الأستاذ عشماوى وهو فى غنى عن الكذب؟ إنه رجل يتمتع بشهرة عريضة ودخله لا بأس به وهو موضع تقدير واحترام الجميع مضى الأسبوع كلمح البصر لم يشعر المحاسب توفيق بانقضاء الزمن إلا وهو يعد حقائبه استعدادا للسفر. كان أسبوعا ممتعا لم يذق توفيق مثله من قبل، وكان للاستاذ عشماوى فضل فى مضاعفة المتعة بحديثه الشيق ورؤيته العميقة لأحوال الناس والحياة. واستطاع الأستاذ عشماوى أن يغير كثيرا من أفكار توفيق. فما الذى يمنعه بالفعل من خدمة الناس من خلال صديقه صاحب النفوذ؟ وما هو الضرر فى وجود رجال من ذوى النوايا الطيبة حول أصحاب المسئولية والقرار. فى القطار العائد إلى القاهرة لم يتبادل الصديقان الحوار إلا فى فترات متقطعة، كأنه لم يكن هناك داع للكلام بعد أسبوع حافل لم يتوقفا فيه عن الحديث وتبادل الآراء. إنهمك توفيق بعد الرحلة فى إجراء اصلاحات واسعة فى مكتبه الذى كان قد أهمله منذ افتتاحه قبل ذلك بعشر سنوات. وأنفق عليه أموالا كثيرة ليليق بالدور الذى

سيقوم به فى المستقبل القريب، وجهز مكتبا لصديقه العشماوى، وبدأ يتردد على المكتب بانتظام بينما صديقه الأستاذ عشماوى كان يأتى بين الحين والآخر. وذات مساء رن جرس الباب وكان الفراش قد غادر المكتب إلى بيته منذ دقائق وقام توفيق ليفتح الباب بنفسه على أمل أن يكون الأستاذ عشماوى هو الطارق. ولكن دهشته كانت كبيرة عندما وجد نرجس أمامه. نرجس مرة أخرى.. يا للهول على رأى يوسف بك وهبى. وتجولت نرجس ببصرها فى أرجاء المكتب وانبهرت بروعة الديكور وفخامة الأثاث، وقالت له وهى تغمز بعينها :

– انت نويت تفتح شركة وللا إيه؟

ورد عليها توفيق بلهجة عادية :

– لأ.. أنا نويت أبقى محاسب؟

– الله.. أمال انت كنت إيه الأول؟

– أنا كنت محاسب على سبيل التذكار. ذهب توفيق إلى المطبخ وعاد ومعه زجاجة مياه غازية وجلسا على مقعدين متجاورين وقالت له وهى ترتشف بعض قطرات من الزجاجة.

– يعنى ما عملتليش حاجة يا توفيق؟

– أنا تحت أمرك قولى أعمل إيه؟

– يا رجل قلت لك توصى صاحبك يعملى الخدمة البسيطة دى ودى مش ح تكلفه حاجة غير تليفون، وإن كان على حق التليفون أنا مستعدة يا سيدى.

– انت يظهر عندك معلومات مش مضبوطة، إذا كان قصدك على صاحبى الراجل الضابط اللى كان زميلى فى ثانوى أحب أقولك إنه راجل غلبان زى حالتنا.. ويبقى كتر خير الدنيا لو عرف يخدم نفسه. ولزمت نرجس الصمت فترة.. ثم قالت وهى تحدق فى عينيه :

– عيبك إنك فاهم نفسك ناصح والناس كلها بلهاء، صاحبك الغلبان ده يا توفيق يقدر يعمل من الفسيخ شربات.

- ومعلوماتك دى منين ؟

لأ.. ده سر حربى بقى ما أقدرش أقولهولك.

- لا أنا عاوز أعرف بصحيح.. وبعدين دى مسألة تهمنى جدا، لأن أنا سألته سؤال مباشر فأنكر تماما أى حاجة زى كده.

لأ.. إنت عارف زى ما أنا عارفة بالضبط.. وأنا مش طالبة المستحيل.

- تعرفى يا نرجس.. أنا من ساعة ما قولتيلى الحكاية دى الدور اللى فات وأنا دماغى مقلوبة.. إذا كان كلامك صحيح طيب بينكر ليه؟

قالت بعد أن رسمت على شفتيها ابتسامة ذات معنى :

- هو ما أنكرش ولا حاجة إنت اللى بتتنكر.

- تانى يا نرجس. بقولك صدقينى مرة فى حياتك.

- أنا عاوزاك انت اللى تقول الصدق مرة فى حياتك.

- يعنى أنا فى رأيك كذاب يا نرجس ؟

- لأ ما انتش كذاب ولا حاجة.. انت بس عامل ناصح.

- طيب فهمينى إزاى!!

أشعلت نرجس سيجارة وشدت نفسا عميقا ثم قالت :

- انت مش كنت فى أسوان الشهر اللى فات.

بهت المحاسب توفيق.. كأنها ضبطته عاريا.. وقال بصوت خافت :

- آه صحيح.

- ومش كان معاك الاستاذ عشماوى صديقك ؟

- دى فيها إيه؟

- يعنى مافيش فايدة فيك.

وهمت بالوقوف استعدادا للانصراف ولكن توفيق جذبها بشدة وأعادها إلى مقعدها وقال لها بعصبية :

- شوفى بقى.. احنا مش بنعمل فوازير وأنا مش فاضى للألغاز دى قولى لى انت عرفتى ازاى إن احنا سافرنا أنا والأستاذ عشماوى؟

- أنا أصلى فاتحه فرع مع المخابرات الإنجليزية.

قالتها وضحكت ضحكة ممطوطة تحمل أكثر من معنى،، وانفعل توفيق بشدة وقال لها وقد بدا عليه الاضطراب :

- لا صحيح أنت عرفتى إزاى ؟

- يا سلام.. بسيطة.. ناس شافوكو هناك.

- طيب شافونى وعرفونى هناك لكن ايش عرفهم بالأستاذ عشماوى ؟

- إذا كنت عاوز الصراحة يا توفيق. هما عرفوا الأستاذ عشماوى وبعدين عرفوا انك معاه الأستاذ عشماوى أديب ومعروف.. مش كده وللا إيه!

ونهضت نرجس واستأذنت فى الخروج وقبل أن يفتح المحاسب توفيق فمه بكلمة ألقت نظرة على ساعتها وصاحت ياه دا أنا اتأخرت قوى! .

وحاول توفيق أن يبقيها بعض الوقت ولكنها تمسكت بالخروج وقالت فى لهجة ودية:

- حا أزورك مرة تانية.. بس بشرط.

- وإيه شرطك يا ستى؟

- يكون صاحبك خلص موضوعى.. وتأكد أنه مش ح يتكلف حاجة غير تليفون.

كان المحاسب توفيق ونرجس قد وصلا إلى الباب عندما دق جرس الباب فتحه وعندما فتحه وجد الأستاذ عشماوى حاملا فى يده لفافة، ووقف عشماوى ينظر بإعجاب إلى نرجس وهو يلعق لسانه ويرعش حاجبيه.

وقالت نرجس وهى تشير نحو العشماوى.

- الأستاذ العشماوى مش كده!

وأحنى العشماوى رأسه وقال :

- تمام يا افندم.

وأشار توفيق إلى نرجس وقال :

- الأستاذة نرجس.. محاسبة وزميلتى فى الكلية.

وقال العشماوى وقد بدا الاستنكار على وجهه :

- يا توفيق حرام عليك، قول تلميذتك مش زميلتك.

وضحكت نرجس وقالت للعشماوى :

- أنا متشكرة على المجاملة اللطيفة دى.

وقال الأستاذ عشماوى :

- دى مش مجاملة يا افندم أنا بأوصف اللى باشوفه.

- لأ ده أنت لطيف قوى يا أستاذ عشماوى.. وعلى العموم أنا قرأت لك كتير وما كنتش متصورة إنك لطيف للدرجة دى.

شعر توفيق بشىء من الغيرة فقال لها :

- ياله بقى علشان ما تتأخريش.

فمدت يدها وصافحت توفيق.. ثم صافحت الأستاذ عشماوى وغادرت المكتب وقال توفيق لعشماوى :

- إيه اللى معاك ده !

- ده فطير مشلتت يستاهل بقك.

حاول عشماوى فتح الورقة التى بين يديه ولكن توفيق منعه من ذلك متعللا بأنه لا يأكل مثل هذه المعجنات ليلا ثم مضى أمامه نحو مكتبه وقال :

- أنا عاوزك فى حكاية لكن ملخبطانى.

- انت دايما متلخبط يا توفيق.. أنا عاوزك تاخذ المسائل بهداوة وماتنزعجش لأى سبب.. المسائل كلها بسيطة وحلها أبسط منها. وعاوز أقولك أنا عندى لك خبر يساوى عشرة مليون جنيه.!

١٢ الفطير المشلتت!

جلس توفيق أمام الأستاذ عشماوى يستمع إليه فى اهتمام. حاول عشماوى فتح اللفافة التى تحوى الفطير المشلتت، ولكن عشماوى توقف عن ذلك بعد أن صرخ توفيق فى وجهه صرخة مدوية، وبأسلوب يكشف عن مدى غضبه الشديد الذى لا يتناسب مع الموضوع الذى وقع الخلاف بشأنه. ولذلك دقق عشماوى النظر فى وجه توفيق وقال :

– إنت إيه حكايتك بالضبط ؟

– مالها حكايتى.. فيها إيه؟

– أنا شايف إنك عصبى أكثر من اللازم، وحكاية الفطير ما تستاهلش الزعيق دا كله.

– أنا مازعقتش.. أنا صوتى كده.

ضحك الأستاذ عشماوى ضحكة طويلة وقال لتوفيق.

– على العموم مش مشكلة، خلينا فى المهم أحسن.

– وياريت تخش فى الموضوع بسرعة لأن أنا تعبان قوى.

وقال الأستاذ عشماوى متهكما :

– الله يكون فى عونك، شوف يا سيدى.

وراح عشماوى يشرح الموضوع لتوفيق الذى لم يتحمس فى البداية، فالسر الذى كشفه عشماوى يحتمل الاهتمام به أولا ، والأستاذ

عشماوى نفسه أحيانا يقول ما يستحق الاهتمام، وغالبا يكون مجرد خرافات وأوهام. ولكن الذى استرعى اهتمام توفيق هو قول عشماوى إنه اتفق مع الضابط على البدء فى تكوين خلية صغيرة من خمسة أشخاص يمثلون قوى الشعب العامل.

غريبة!! اتفق معه متى وأين؟ هل يقابل عشماوى الضابط من وراء ظهره؟ وهل يثق الضابط فى عشماوى بشكل أكبر من ثقته فى صديقه القديم توفيق؟ ولكن هذا النبأ وإن كان مثيرا إلا أنه كان عاديا بالنسبة لتوفيق، أما الأمر الذى هزه هزا وكاد يفقده وعيه، فهو الاقتراح الذى قدمه عشماوى فى سياق حديثه.

– وأنا شايف يا توفيق ضرورة الإسراع فى تشكيل هذه الخلية، عندنا الضابط وأنت وأنا ونرجس وعاوزين عامل معانا كمان وتبقى المسألة تمام.

وانفجر توفيق فجأة وصاح مستنكرا :

– وإيه علاقة نرجس بموضوع زى ده؟

ورد عشماوى ببرود :

– علاقة متينة جدا، أولا واحدة ست، وأى تنظيم محتاج لعنصر نسائى - ثانيا مثقفة وواعية جدا، ثالثا جماهيرية وعلى علاقات حسنة ومتوازنة بالجميع، رابعا وخامسا وعاشرا.. دى زميلتك وصديقتك أيضا.

ولكن توفيق لم يهدأ ولكنه ازداد هياجا، وصاح بصوت عال وهو يغادر مكتبه فى حالة قرف شديدة.

– وأنا بصراحة لا علاقة لى بأى تنظيم فيه الست دى. وبعدين يا أستاذ عشماوى يكون فى علمك أنا لن أسمح لأى مخلوق باستغلال مكتبى إلا فى الأغراض بتاعتى، المحاسبة وبس.

اندفع توفيق كالإعصار خارجا من المكتب، وعشماوى يحاول اللحاق به. وفى الشارع تذكر عشماوى أنه ترك لفة الفطير المشلتت

على المكتب، وحاول إعادة توفيق إلى المكتب، ليس للتفاهم حول مستقبل التنظيم، أو لإعادة رسم خريطة الوطن ولكن من أجل استعادة الفطير فقط، الله يلعنك يا توفيق يا ابن الهايفة، ضيع على الأستاذ عشماوى الاستمتاع بلقمة الفطير المشلتت التى صنعها الحاج محمد الدمياطى بنفسه وبالزبدة الدمياطى التى ليس لها مثيل فى الكون. ولم يكن هناك سبب لهذا الغضب الذى انتاب توفيق إلا غيرته الشديدة، فهو يحب نرجس ولكن شخصيته وعقده النفسية تجعل بينه وبين صنف النساء ساترا غير منظور، فهو يحبها ولكن ليس بما فيه الكفاية، وهو يشعر بغيرة شديدة عليها ولكنه لا يعلن ذلك ولا يسمح لأحد بأن يكشف سره. وهو يعلم تمام العلم أن الأستاذ عشماوى أكبر منه سنا وأقل منه وسامة وأناقة، ولكنه يقدم بضاعة جيدة هى الكلام، فهو كلمنجى من طراز رفيع، كما أن شهرته تمهد له الطريق إلى قلوب السيدات. ولابد أن اقتراحه بتشكيل اللجنة وضم نرجس إليها هى مكيدة من مكائده هدفها الوحيد اصطياد نرجس ليس إلا، ولكن توفيق لن يسمح بذلك حتى لو أدى الأمر إلى قطع علاقته بكل ما يربطه بحياته الجديدة، والعودة إلى سابق عهده.. ومهما تكن النتائج. فهو لن يسمح بأن يكون جسرا للعشاق أو ممرا للمنافقين والانتهازيين.

اعتكف توفيق فى منزله عدة أيام، فاضطر الأستاذ عشماوى إلى زيارته فى منزله، واستبدت الدهشة بالمحاسب توفيق عندما وقع بصره على الأستاذ عشماوى يقتحم عليه غرفته وفى يده باقة ورد متعددة الألوان. لا يغيظ توفيق فى الأستاذ عشماوى إلا عدم إحساسه وبروده. وبعض الناس يتصور أن هذا البرود هو من سمات الشخصية القوية. ولكن نظرة توفيق لعشماوى كانت تختلف عن نظرة الآخرين. فعشماوى مجرد همباك مخادع وكسول وكذاب أيضا، عرف أجزاء من هنا وهناك، ولكنه يعرف كل شيء وهو نصاب يطمع فى أموال النساء اللاتى يقعن فى غرامه. وتوفيق سيكشفه ويفضحه إذا حاول الإيقاع بنرجس.

ولكن توفيق أخفى مشاعره ورحب بالأستاذ عشماوى عندما وجده أمامه فى غرفته. صحيح أن ترحيبه به كان فاترا، ولكن عشماوى انطلق كعادته فراح يسرد على مسامع توفيق كل الأحداث التى وقعت فى مصر خلال فترة مرضه، وقص عليه بالتفصيل ما جرى فى قهوة كتكوت، ثم زف إليه بشرى موافقة صديقه الضابط على اقتراحه بتشكيل هذه الخلية التى تحدث معه بشأنها. والكارثة الكبرى أن عشماوى حدد يوم الأربعاء القادم للجلسة الأولى وسيكون الاجتماع فى مكتب المحاسب توفيق الساعة الثامنة مساء.

لا حول ولا قوة إلا بالله، عشماوى أصبح صاحب الأمر والنهى فى كل شىء حتى بالنسبة لمكتبه. غمغم توفيق بكلمات غير مفهومة ثم قال :

– واشمعنى مكتبى يعنى، ما تقعدوا فى أى حتة تانية، ثم دا مكتب عمل وأكل عيش وفيه زباين بتجيلى فى الساعة دى، وبعدين أعمل أنا إيه معاهم، اعتذر لهم لأنى عندى اجتماع المفروض إن إحنا نقعد بعيد عن مكاتبنا.

ولم يفاجأ الأستاذ عشماوى باعتراض المحاسب توفيق فقال :

– أنا شخصيا كنت عامل حساب المسألة دى، ولذلك افترض إن إحنا ننقل الاجتماع من مكتبك بعد كده، وهيكون الاجتماع الثانى فى بيتى أنا، والاجتماع الثالث هيكون عند مدام نرجس.

ورد المحاسب توفيق بعصبية :

– يبقى عند نرجس إزاى دى ست متجوزة وبعدين جوزها يقول إيه. وهوه معقول تاخد معاها أربعة رجالة طوال عراض وتروح لجوزها تقوله إيه. دا كلام فارغ ما حدش يوافق.

ورد الأستاذ عشماوى بهدوء :

– وإذا كانت هية موافقة. ورحبت بالفكرة لما عرضتها عليها.

– إمتى وافقت ؟

- امبارح. وبالعكس.. تحمست جدا للفكرة وقالت ياريت تعملوا الاجتماع عندى على طول. وعلى فكرة.
ونطق عشماوى العبارة الأخيرة كأنه يمهد للكشف عن سر خطير. ثم تابع قائلا :
- صاحبك ريحها على الآخر. وتم نقلها من المكان اللى هيه فيه، واستلمت منصبها الجديد.
- منصب إيه الجديد ده ؟ ثم مين صاحبى ده ؟
حضرة الضابط، بتليفون منه نقلها من المكان اللى بتشتكى منه، وأصبحت الآن عضوا فى المكتب الاستشارى للسيد رئيس الجهاز.
- ومين اللى قال للضابط ؟ هيه نرجس!؟
- لا طبعا.. أنا اللى قلتله.
يادى المصيبة الكبرى اللى حطت على دماغك يا توفيق.. هكذا أصبح عشماوى هو همزة الوصل بين الضابط وبقية الناس.
- طيب وانت شفت نرجس فين ؟
فأجاب عشماوى على السؤال ببساطة.
- فى بيتها.. على فكرة.. الراجل جوزها مدهش للغاية، واكتشفت أنه قارىء عظيم وذواقة كمان. تصور قرأ لى روايتى «نهر بلا مصب» واكتشفت أنه فهم الرسالة اللى أنا عاوز أوصلها. مع إن قلة قليلة اللى فهمت المعنى اللى أنا عاوز أوصله. تصور أن أنا لقيت كل كتبى عنده فى المكتبة، وعامل على الهوامش ملاحظات فى غاية الأهمية، ولقيت هناك خلاف بينه وبين نرجس على بعض الملاحظات، وقعدنا نتكلم إحنا التلاتة ومع ذلك ما عرفتش أحل الخلاف، لأن كل واحد عنده حجه ووجهة نظره، ووعدتهم لازم نعمل قاعدة تانية وتالتة لحد ما نوصل لحل. الحقيقة إنه بيت مدهش وأسرة جميلة تستاهل كل خير.
عندما انتهى عشماوى من حديثه كان توفيق فى حالة يرثى لها كمن

اصيب بضـربة قاضـية. لم يعلق بشىء ولم ينطق بحـرف. عشـماوى اسـتطاع التـسلل إلى بيت نـرجس وصـار فردا من الـعائـلة. وبالطبع سحرهم بحديثه وبهرهم بشهرته. ونرجس ناعمة ورقيقة وحالمة. وهو يعلم تمامـا أنها قبلت الزواج من زوجهـا بدون حب، ولكنها ارتضت به بهدف تكوين أسـرة وبناء بيت، وسيكون عشمـاوى بمثابة المشـهيات التى تفتح النفس، فـيكون لها زوج هو رب البيت وعشيق يجـعل الحياة سهلـة وهنية ويساعـد على استـمرار الحـياة. ياللكارثة التى ليـس لها مثيل، وتوفيق كالعادة سيـخرج من المولد بلا حمص. كانت هذه حالته دائما بسبب تردده وخوفه وعدم قدرته على خوض المعارك فى اللحظة المناسـبة. مـا العمل الآن وقـد ضاع منه كل شىء، صـديقه الضـابط وحبيـبة القلب نرجس وسيكون مـجرد عضو على الهـامش فى الخلية التى يسيطر عليها عشماوى ويوجهها إلى الجهة التى يريدها، ولكن هذا لن يكون، ولن يمـر عشمـاوى إلى هدفه إلا على جـثة توفيـق. وعندما طلب عشماوى منه أن يكون حاضرا فى استقبالهم مساء الأربعاء حيث تقرر عـقد الاجتـماع فى مكتبـه، اعتـذر توفيق عن عدم حـضوره لأنه يشعر بأن مرضه سيطول، ثم مد يده بمفتاح المكتب قائلا له :

– على العموم المكتب مكتـبك وانتو فيكو البركة، وأنا قلبى مـعاكو، واللى يريده ربنا هيكون.

ومد عشماوى يده والتقط المفتاح، ثم قال لتوفيق.

– إن شاء الله على يوم الأربع هتـقوم زى السكة الحديد وهتـحضر مـعانا، عـشـان نبـدأ الانطلاقـة ونعمل اللازم وكـل شىء هيكون على ما يرام.

وقال توفيق وهو يصطنع المرض :

– على كل حـال أنا حاسس بنفـسى وحاسس إن أنا تـعبـان قوى.

ورد عشماوى معقبا :

– على كل حـال حـاول، وإذا ما قـدرتش تقـوم إحنا هنجـتـمع فى

الميعاد وبعديهــا هنيجى نزورك هنا ونبلغك باللى حصل. وبعدين إحنا مش هنجـتمع مرة واحـدة وبعدين كل واحـد يروح لحاله، دى هتـبقى رفقة زى رفقة السلاح، يعنى جواز كاثوليكى من غير طلاق.

وضحك الأستاذ ضحكة عالية وقال وهو يستأذن فى الانصراف :

– بس نصيحة لك من أخوك حبيبك بلاش تستسلم للمرض، لأن الاجتمــاع الجاى دا اجتماع تاريخى ويتـوقف عليه حاجات كتـير قوى، ولو حسـيت إنك عيـان بصحـيح يبقى نكلم صـاحبك الضـابط يدخلك مستشفى عسكرى، لأن الخدمة هناك تمام والدكاترة تمام وبعدين مش هاندفع حاجة.

ياللصفاقة التى ليس لها مـثيل، يقولون إن الأديب حساس.. أين هى الحســاسية التى يتمـتع بها هذا الرجل تصوروا، هو الذى سـيتكلم مع الضابط صـاحبى. الضابط صاحـبى أنا ولكن هو واسطتى إليه! طيب.. كيف ؟ وبأمارة إيه؟ ولكن كله كوم ودخـوله بيت نرجس كوم آخر. ليه يا نرجس يا بنت الناس ؟ توليت ذبح العـبد لله مرتين، مـرة فى البداية ومرة فى النهـاية. ولكن من الملوم فى هذا الأمر؟ لقد كـانت فى البداية طوع إشارة منك يا توفيق، ولكنك جبان ومتردد ولا تحسن التعامل مع النساء. وفى هذه المـرة جاءت إليك بنفسهـا وطلبت منك أن تتدخل مع الضابط صــاحبك لكى ينقلها إلى عمـل مريح ولكنك غطرشت وأهملت. ســاذج أنت يا توفيق ولن تـجد لنفسك مكانا تحت الشـمس. وهذا هو العشماوى قدمته لصديقك الضابط فجلس على العرش وتربع. هو الذى قام بتشـكيل اللجنة وهو الذى حدد أعضاءها، وهو الذى اخـتار نرجس باعتبارها ممثلة للمرأة، وهو الذى اخـتار مكتبى أنا ليكون محلا مختارا للجنة. ماذا تبقى لك يـا توفيق؟ وإلى متى تظل حبيس شـرنقة نفسك؟ وهلى ستـقنع حتى نهاية العـمر بموقف المتـفرج؟ وهل ستدع أسـتاذ عشـماوى يمـر ويسـتمتـع بكل شىء؟ بينما تبـقى محلك سـر وتذوب كالشمعة حسرة وأسفا؟

بسبب القلق والأرق لم يذق توفيق طعم النوم حتى أشرقت الشمس، ثم صلاة المغرب. وبالرغم من أنه نام طويلا إلا أنه لم يستطع النهوض من الفراش، شعر بجفاف شديد في حلقه وبألم شديد فى مفاصله وبتكسير في عظامه واستدعت أمه الطبيب فاكتشف أن حرارته مرتفعة، وأنه مريض بالحمى ويحتاج علاجه إلى وقت طويل.

عندما فتح توفيق عينيه بعد ثلاثة أيام كان غارقا في بحر من العرق، وكأن بعينيه غشاوة فلم يستطع أن يتبين ملامح الذين أحاطوا بسريره. ولكنه بعد لحظات اكتشف أن المحيطين بسريره هم صديقه الضابط والأستاذ عشماوى ونرجس ولكن دهشته تضاعفت عندما رأى الواد ريعو جرسون قهوة كتكوت يجلس بينهم، وما الذى جاء بالولد ريعو هنا، لابد أن المعلم كتكوت أرسله للاطمئنان على صحته. وتمالك توفيق نفسه ونهض أو بمعنى أصح حاول النهوض، ولكنه فشل في ذلك فاكتفى بوضع عدة وسائد تحت رأسه وراح يجفف عرقه بفوطة كبيرة، ثم طلب من أمه كوبا من مشروب النعناع، ولكن نرجس تطوعت بإعداد كوب النعناع. وعندما حاول الأستاذ عشماوى أن يلحق بها إلى المطبخ للمساعدة، شخط توفيق فى عشماوى شخطة أعادته إلى مقعده بدون تعليق. ونظر توفيق إلى عشماوى ثم نظر مرة أخرى إلى ريعو ثم سأله :

– المعلم كتكوت بعتك؟

وتدخل عشماوى فى الحديث وقال لتوفيق :

– أولا الحمد لله على سلامتك.

ثم أشار نحو ريعو وقال :

– دا العامل اللى قلتلك عليه.

ولم يَبْدُ على توفيق أنه فهم شيئا، ولكنه عندما حاول أن يفتح فمه، نظر عشماوى إلى ريعو وأشار له بالخروج قائلا له :

– قوم يا ريعو إنت روح القهوة شوف شغلك وأجاب ريعو بسرعة:

ـ أنا ماعنديش شغل الليلة دى أنا فى أجازة.
– زى بعضه روح إنت الوقت وبعدين هابقى أتصل بك.
وقف ريعو استعدادا للرحيل. وقبل أن يذهب ألقى سؤالا على عشماوى.
– والاجتماع الجاى إمتى؟
– أنا هابقى أبلغك.
– وهنا فى بيت المحاسب توفيق برضه؟
– بعدين هاقولك.. بعدين.
تساءل توفيق :
– إيه اللى جاب ريعو معاكو ؟
– ما هو دا العامل اللى قلتلك عليه .
– عامل إيه؟ مش فاهم.
– العامل اللى هينضم للخلية بتاعتنا .
هب توفيق من فراشه مذعورا وقال :
– يا خبر اسود.. ريعو فى الخلية . ورد عشماوى قائلا :
– وفيها إيه ؟
– دا جرسون، يعنى خدام مش عامل تجيبوا خدام فى الخلية ؟
نفخ عشماوى بحرارة ثم قال :
– إنت نظرتك للناس نظرة طبقية فوقية وحقيرة للغاية، إنت يا توفيق لا تصلح فى العمل السياسى على الإطلاق.
كانت نرجس قد انتهت من عمل كوب النعناع. وكانت أصوات توفيق وعشماوى تتصاعد فى فضاء الحجرة ويتردد صداها بين الجدران. فى نفس اللحظة التى دخلت فيها نرجس الحجرة، كانت ثورة توفيق قد بلغت مداها، فلم يشعر بنفسه وهو يلتقط كوب النعناع ويقذف به نحو الحائط. وانكسر الكوب وتتطايرت شظاياه فى كل اتجاه، وأصابت الشظايا وجه نرجس وسال الدم على خدها وأسرع

الأستـاذ عشــماوى يمـسح الدم بمنديل انتـزعه من جـيبه، وصـرخت نرجس من شـدة الألم، وهرعت الأم إلى الحـجـرة تستطـلع ما جـرى، وجن جنون توفـيق فـصرخ فـى وجه عـشـماوى ونرجس يـأمرهمـا بمغادرة المنزل وضربت الأم صدرها بيدها وصاحت.

– يا عيب الشوم يا بنى إيه اللى، جرالك يا توفيق!

وقال عشماوى فى صوت مهذب.

– مفـيش حاجة يا ست الحاجـة، دا من تأثير الحرارة العـالية اللى كانت عند توفيق.

واستفزت هذه العبارة توفيق بشـدة فازداد هياجه وارتفع صياحه، واسـتـبد الخـوف بنرجس فـولت هاربة إلى الـشارع وصـاح توفـيق بجنون :

– أنا مش م الصنف دا يا أسـتاذ عـشمـاوى قال إيه خليـة قال، دا شغل بولوتيكا دا، وجـايبين واحد جرسـون للخلية، خلية يا عـشماوى يا نصـاب، والله العظيم لا فضـحكم فضـيحـة بجلاجل. قـال إيه قوى الشعب العامل الشـعب العامل واللا الشعب الجرسـون. يا بتوع التلات ورقـات يا ولاد شـيكا بيكا. وفـتح توفـيق الشبـاك وراح يصـرخ فى الشارع صرخـات هستيرية، بينما كـان يتصبب عرقا بشـدة واستأذن الأستاذ عشماوى من الحاجة وخـرج مسرعا. ومن قهوة كتكوت اتصل بالضـابط وبعد سـاعة كـانت سيـارة إسعـاف تقف أمام بيت توفـيق، وعندمـا انطلقت عائدة كـان بداخلهـا المحـاسب توفيق فى طريقـه إلى مستشفى المجاذيب!

١٤ السـفيـرة عـزيزة !

بالطبع لم يكن مسموحا لأحد من النساء دخول قهوة كتكوت . ولكن فتاة واحدة كان لها هذا الحق وكان اسمها عزيزة ، كان من حقها دخول القهوة والطواف على الزبائن وعرض ما تحمله من أوراق اليانصيب ولم يحدث فى أى وقت أن أحد الزبائن كسب شيئا من وراء عملية شراء أوراق اليانصيب خصوصا التى توزعها عزيزة ولكن بعض الزبائن ظلوا مواظبين على شراء أوراق اليانصيب من عزيزة ، حتى المعلم كتكوت نفسه كان يسعد برؤيتها ، وأحيانا كان يغمز بعينه للواد ريعو الجرسون ليقدم لها واحد حلبة حصى ، وهو المشروب الذى كانت تفضله عزيزة ومقابل الواحد حلبة حصا كانت عزيزة تشارك الواد ريعو فى تنظيف القهوة وكنس الرصيف وأحيانا كانت تشارك عم عبده القهوجى فى غسيل الأكواب بعد إغلاق القهوة أما عزيزة نفسها فكانت فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها ، جسمها (متفصل) .. كما كان يقول ريعو ـ لها وجه مليح وابتسامة حلوة ، وكانت لها غمازتان تظهران بوضوح على خديها كلما ابتسمت ، وكان الواد ريعو يضرب جبهته بكفه ويقول فى لوعة (يا سلام لو تفرج يا جدعان) وكان عم عبده القهوجى يسأله فى استفزاز هتعمل إيه يعنى ؟ ويرد الواد ريعو قائلا :

– هتجوز عزيزة ونعيش سوا فى التبات والنبات .

– هو انت لاقى تحلق !
– مانا بقولك لما تفرج ..
– وهتفرج منين
– ورقة يانصيب تكسب البريمو .
وكانت شلة الأدباء التى تجلس على قهوة كتكوت هم أفضل الزبائن عند عزيزة ، كتب شاعر شاب منهم قصيدة بعنوان .. عزيزة .. وقرأها أمامها كادت تطير فرحا . وقال لها أستاذ الفن الشعبى عكاشة ذات مرة .
– انت فيك شبه كبير من عزيزة المزاتية .
– عزيزة مين دى يا أستاذ أنا والله ما أعرفها.
وقال لها الأستاذ عكاشة مطمئنا :
– عزيزة المزاتية شخصية من شخصيات التغريبة الهلالية .
وتلفتت عزيزة حولها ، ثم أسرعت بالانصراف ، ولم تفهم شيئا وكان الوحيد من شلة الأدباء الذى يضايقه وجود عزيزة هو الأستاذ طلبة ، وهو الموظف بمصلحة الكهرباء ومواظب على كتابة قصص قصيرة ، ولكنه لم ينجح فى نشر أى قصة منها ، فقد كانت القصة من النوع الذى يأخذ طريقه بسهولة إلى سلة المهملات. ولما اشتد به اليأس أصدر مجموعة قصص على حسابه بعنوان « الهاوية » ونشر صورته على الغلاف وقد وضع قبضة يده تحت ذقنه وكتب تحت الصورة اسمه «الأستاذ طلبة عبد الستار»! ووزع بعض نسخ المجموعة على بعض المكتبات بالجيزة وكان يسأل أصحابها بين الحين والآخر عن مصير النسخ ولكنه كان يصدم فى كل مرة بأن النسخ مكانها لم تنقص نسخة واحدة فى أى يوم . وكان أحيانا عندما تجمعه مناسبة مع بعض الأدباء الشبان يتساءل فى ضيق شديد :
– ما هو السر فى اشتهار بعض الأدباء وذيوع صيتهم ، بينما يصيب بعض الأدباء الأفول ويلفهم الصمت ويذهب إنتاجهم هباء وكان

يتحمس دائما للشاعرإسماعيل عبد الواحد ، ويؤكد أنه لا يقل قامة عن الشاعر أحمد شوقى وحافظ إبراهيم ! ولم يفصح الأستاذ طلبة فى أى وقت عن شخصية الشاعر إسماعيل عبد الواحد ، ولم يكشف فى أى وقت عن نماذج من شعره ، وكان الأستاذ طلبة يجلس صامتا فى حضور الأدباء المشاهير ، ولكنه كان يتبجح فى الكلام عندما يكون جالسا مع بعض الأدباء الشبان أو عند حضور عزيزة ببضاعتها من أوراق اليانصيب ، وكان يعتب أحيانا على الأدباء احتفالهم بهذه البنت الصايعة ، وكان ينسب إلى أوراق اليانصيب سر ضعف الناس وعميق صبرهم فهذه الأوراق تجعلهم فى حالة انتظار للمجهول الذى يأتى فجأة فيحل مشاكلهم كلها ويوفر الحياة الكريمة لصاحب النصيب ، ثم حدث ذات عصرية أنه جاء مبكرا على غير العادة وجلس على رصيف القهوة وكان الجو حارا والقهوة خالية تقريبا من الزبائن عندما جاءت البنت عزيزة تحمل أوراق اليانصيب ، وعندما اقتربت من مكان الأستاذ طلبة واكتشفت أنه هو الجالس هناك ، فرت هاربة كغزالة اكتشفت وجود الصياد على مقربة منها ، نادى عليها الأستاذ طلبة بصوت عال فتوقفت ونظرت نحوه مندهشة وقالت فى صوت ملون بالخوف .

– أنا يا بيه ؟

– فيه حد غيرك هنا اسمه عزيزة ؟

وزحفت عزيزة نحوه وهى تتوجس شرا حتى أصبحت على مسافة قريبة من مجلسه ، ولكنه أشار إليها بالاقتراب أكثر ، ولأول مرة فى حياته ترتسم على فمه شبح ابتسامة مما شجع عزيزة على الاقتراب ، ومد يده نحوها وأخذ أوراق اليانصيب منها وراح يلقى عليها نظرة ، ولكنه تعمد أن يلمس يدها بأصابعه ، ثم راح يختلس النظر إليها من فوق لتحت ، البنت فعلا ملفوفة ولولا بعض الشحوب الذى يبدو على وجهها من سوء التغذية لكانت أحق البنات بلقب السفيرة عزيزة ، اختار الأستاذ طلبة بعض أوراق اليانصيب وأعطاها ثمنها وفوقه قرشين

بقشيشا لهـا وعندما قالت له أنها تقاضت أكثر من حـقها ، أجابها وهو يبتسم :

– انت تستاهلى كل خير ياست عزيزة .

ست عزيزة مرة واحـدة .. ما هو سر التغيـر الذى طرأ على الأستاذ طلبة ؟ لقـد كان ينظر إليها شـزرا ويرسم على وجهه علامـات الغضب كلما رآها ، وتمنت عزيزة أن تفوز إحدى الأوراق التى اشتراها ليستمر التعـاون بينهـما على هذا النحـو ، وأصبح من عـادة الأستاذ طـلبة أن يحضـر كل يوم فى هذا الوقت المبكر لكى ينفرد بعـزيزة ولكن عزيزة لسـوء الحظ اخـتـفت فى الأيام الثـلاثة الأولى ، ثم ظهـرت فى اليـوم الرابع ، وعندما اقتربت منه جاءت تتقصع وقـد أضاء وجهها بابتسامة عريضة ، واستـقبلها الأستاذ طلبـة مرحبا وسألها عن سر غـيابها فى الأيام الماضية فردت بأنها كانت تشعـر بالتعب وكان صوتها مبحوحا كـأنهـا تعـانى من نزلة برد ثم تناول ورقـة يانصـيب وأعطاها ورقـة بخمسة قروش ، ولما مدت له يدها بالباقى أزاح يدها بعيدا وقال لها :

– اشترى برتقال واعصريه وخـديه مع أسبرين عشان البرد يروح

ثم ابتسم وقال :

– مش عاوز أشوفك عيانه ، اللى زيك حرام يعيا .

ابتـسـمت عزيـزة فى دلال ، وقبل أن تـغادر القـهـوة وقـفت على الرصيف وألقت نظرة علـى الأستاذ طلبة فـاكتشـفت أنه يتفرس فيـها بطريقة أشاعت الخوف فى نفسها ، ولكنها مع ذلك ابتسمت له ابتاسمة مشـجعة ثم مضت واختفت عن الأنظار .

ما الذى غير موقف الأستـاذ طلبة من عزيزة ؟ وماذا يريد منها على وجه التحديد؟ يا سلام لو طلبها الأسـتاذ للزواج وعاشت معه فى شقة كبـقية النسـاء . لقد قـضت عمرها كله تحلم برجـل مثل الأستـاذ طلبة ينتـشلها من هذا الشـقاء الذى لا تـبدو له نهـاية ،ويخلصـهـا من أمهـا العميـاء التى تقضـى الوقت كله فى عراك مع أبيها أحـيانا بسبب وأغلب

الوقت بلا أسباب ، وأبوها الشيال الذى يقضى نهاره على رصيف المحطة بحثا عن لقمة العيش ، ويقضى جانبا من ليله فى الحانة التى تقدم البوظة للزبائن وعندما يعود مخمورا تدب الخناقة بينه وبين زوجته العمياء ولا تنفض الخناقة إلا بعد أن تنتهى الزوجة من تفتيش هدومه والاستيلاء على القروش القليلة التى تبقت معه.. أما أخوتها الذكور فهم صياع وإن كانوا يساهمون بمجهودهم العضلى فى مصروف البيت ، فهم يقومون بخطف كل أنواع الخضراوات من عربات الكارو التى تنقل خيرات الريف من الحقول إلى سوق الخضار بالعاصمة وأحيانا يحصل العيال على أكثر من حاجة البيت فيقومون بعرض ما سرقوه للبيع على الرصيف المجاور لمسكنهم أما المسكن فهو لا يمت للمساكن بصلة . إنه إسطبل خيول يملكه شيخ عربجية الجيزة ، وقد سمح للرجل الشقيان والد عزيزة بالسكن فيه بدون أجرة إكراما للمرأة الكفيفة زوجته ومن يومها والعائلة تسكن مع حصانين وبغل وعدة حمير . ولكنه وضع أفضل من النوم على الرصيف .
يا سلام : يا ناس هل يأتى يوم يكون لعزيزة شقة خاصة وتليفزيون وستارة على النافذة وكنبة تجلس عليها لتشاهد البرامج يمكن للحلم أن يتحقق لو تزوجت من الأستاذ طلبة ، صحيح أن فارق السن كبير ، ولكن .. ما دخل السن فى السعادة كان الوقت مساء عندما وصلت عزيزة إلى القهوة ، وكان الجو حارا، وشلة الأدباء تجلس على الرصيف ومعهم الأستاذ طلبة ، وقدمت الأوراق بيدها للأستاذ وتعمدت أن ترسم على شفتيها ابتسامة عريضة ، ولما لم ينتبه الأستاذ طلبة لوجودها إلى جانبه ، مدت يدها وقرصته فى كتفه ، فلما وقع بصره عليها ظهر الغضب الشديد على وجهه وثار ثورة عارمة ، واستبد الذعر بعزيزة ففرت هاربة بينما صوت الأستاذ طلبة الغاضب يطاردها ، الأمر الذى شد انتباه الزبائن الجالسين على الرصيف ، مما دفع أحدهم إلى ملاحقة البنت والقبض عليها والعودة بها إلى حيث تجلس شلة الأدباء

ظنا من الرجل أن البنت سرقت شيئا من متعلقاتهم ، غير أن الأستاذ عكاشة شكر الرجل الطيب الذى طاردها وأشار عليه بإطلاق سراحها ، وطيب خاطر البنت وأخرج من جيبه بعض الأوراق المالية ، وعندماحاول إعطاءها لعزيزة رفضت بشدة وانخرطت فى بكاء شديد ، وفى ذلك المساء عاتب الأستاذ عكاشة صديقه الأستاذ طلبة لمسلكه الغريب مع البنت عزيزة خصوصا وأن غضبه الشديد لم يكن له مبرر أو سبب وقد اعتذر بشدة عما بدر منه تجاه عزيزة ، وبرر موقفه بأنه متوتر الأعصاب بسبب مرض أخته الوحيدة التى تعانى من إصابة بالسرطان بالرغم من أنها لا تزال شابة وأما لطفلين ، ووعد الجميع بالاعتذار لعزيزة وتعويضها عما سببه لها من إيذاء .

مضت أيام كثيرة قبل أن يلتقى طلبة بعزيزة فى قهوة كتكوت وعندما وقع بصره عليها نهض من مكانه واتجه نحوها ، ولكنها تجمدت فى مكانها واستبد بها الذعر وهمت بالفرار . ولكن الابتسامة العريضة التى ارتسمت على شفتى الأستاذ طلبة بعثت الطمأنينة فى نفسها فتوقفت مكانها وعندما اقترب طلبة منها ربت على كتفها وأبدى اعتذاره الشديد لها ، كان طلبة لطيفا مع عزيزة إلى الدرجة التى قبلت اعتذاره وذهبت معه إلى حيث يجلس وعرضت عليه أوراق اليانصيب واختار منها ثلاث ورقات ثمنها ثلاثة قروش ، ثم نقدها عشرة قروش وترك لها الباقى على سبيل البقشيش ، ووقفت عزيزة تدعو للأستاذ طلبة بالصحة وطول العمر ، وصفق الأستاذ طلبة بشدة وعندما جاء الواد ريعو طلب منه واحد حلبة حصا لعزيزة وعندما انصرف ريعو تناول الأستاذ نسخة من كتابه وناولها لعزيزة ، وعندما شاهدت صورته على الغلاف استبدت بها الفرحة الشديدة لدرجة أنها أطلقت زغرودة وسألته بسذاجة :

– همه كاتبين عنك فى الجرنال ده .

وشرح لها الأستاذ طلبة الأمر ، فهذا الذى قدمه لها هو كتاب من

تأليفه وصورته منشورة على الغلاف باعتباره المؤلف ، وارعشت عزيزة حاجبيها وقالت بأسف :

– يا خسارة يا ريتنى كنت أعرف أقرأ واكتب .

ورد الأستاذ طلبة قائلا :

– دى مسألة بسيطة وسيبيها على أنا !

لم تلفت نظرها عبارة الأستاذ طلبة الأخيرة ، فشكرته بشدة على كرمه وعلى الواحد حلبة حصا ، وانصرفت إلى داخل القهوة واتخذت لنفسها ركنا على يمين (النصبة) حيث جاء الواد ريعو بكوب الحلبة الحصا . ولما شاهد ريعو النسخة من كتاب الأستاذ بين يدى عزيزة اختطفه من بين يديها وراح يتفرس فى صورة الأستاذ ، ثم أعاد النسخة إليها وجرى مسرعا إلى حيث يجلس طلبة ، وطلب منه نسخة أخرى (زى اللى مع البنت عزيزة) ولكن الأستاذ طلبة اعتذر لعدم وجود نسخ أخرى معه ، ولكن ريعو أشار إلى كومة منها موضوعة على المائدة الموجودة أمامه ، ولكن الأستاذ طلبة اعتذر مرة أخرى لأنها جميعا مهداة إلى بعض النقاد وعليها إهداءات شخصية بأسمائهم، ووعده بإهدائه نسخة له مع إهداء منه شخصيا ، ولكن الولد ريعو لم يقتنع بهذا الكلام ووقف يصرخ بصوت عال أمام الأستاذ طلبة .

– بقى تدى البنت الصايعة دى كتاب وأنا لأ ، هيه إيه الحكاية ؟ على الأقل أنا باعرف أفك الخط وعزيزة دى ماتعرفش السما م العمى ، هيه كوسة !! واستفزت كلمة كوسة الأستاذ طلبة فنهض من مكانه ليضرب الواد ريعو بالقلم على وجهه ، وصرخ ريعو بطريقة مبالغ فيها وكأن الأستاذ طلبة أطلق عليه رصاصة ، فخرج المعلم كتكوت بنفسه لمعرفة حقيقة الأمر وبادره الأستاذ طلبة شاكيا له قلة أدب الواد ريعو وعدم تربيته فلطش المعلم كتكوت الواد ريعو قلما على قفاه ، فقد كان المعلم يؤمن بالنظرية الاقتصادية التى تقول (الزبون دائما على حق) ولكن ريعو صاح مرة أخرى محتجا على تصرف المعلم قبل أن يعرف أصل

الحكاية ، وتساءل المعلم قائلا :

– وإيه أصل الحكاية ياد ؟

وقال ريعو والدموع تلمع فى عينيه :

– يا معلم أنا مـا عملتش حاجة الأسـتاذ عنده كتاب عليـه صورته ، خدت عزيزة ، كـتاب منهم ، جيت طلبت منه كتـاب مارضيش . قلت له تدى كتاب لعزيزة الجاموسة وأنا لأ ، راح ضاربنى بالقلم

هرش المعلم فى ذقنه النابتة وقال للأستاذ طلبة :

– كتاب إيه دا يا أستاذ ؟

– دا كـتاب من تاليـفى أنا يا معلـم ، وبعدين أنا كنت شـخطت فى البنت عـزيزة وحبـيت أصالحـها فـاهديتـها نسـخة ، يقـوم الواد اللى ماعندوش أدب يقوللى قدام الناس إيـه شغل الكوسة ده ؟ أنت يرضيك الكلام ده ؟

– حقك على ، هوه أصله مـسحوب من لسـانه ، لكن حقك على أنا ، امسحها فى دقنى أنا .

وسحب المعلم الواد ريعو من يده ودخل القـهوة ، ثم سأله – كتاب إيه يا واد ؟

– وأنا إيش عرفنى أنا يامعلم ، أهو كتاب بيـقول انه هوه اللى كتبه

وتفرس المعلم فى وجه البنت عزيزة وقال لها :

– ورينى الكتاب دا يابت .

وناولتـه الكتاب فى صـمت ، وجلس المعلم على مـقعـده الدائم فى مواجهـة (النصبة) وتفرس بعض الوقت فى صورة الأسـتاذ طلبة ، ثم راح يقلب صفحـات الكتاب ببطء فى البداية ثم بسرعـة بعد ذلك ـ ولما استعرض صفحات الكتاب أغلقه ووضعه أمامه وقال لريعو :

– وإيه اللى عـاجـبك فى الـكتـاب ؟ دا كله كـلام مـالوش لازمـة ، لا واحدة عريانة ولا صورة حلوة ، وبعدين تقوم تقل أدبك ع الأستاذ ، مش هتبطل قلة أدبك دى .

وبينما المناقشة محتدمة بين المعلم والجرسون انسحبت البنت عزيزة من القهوة فى هدوء وغادرت الميدان كله واختفت فى زحام شارع عباس ولمدة أسابيع مرت والولد يحكى ما حدث بينه وبين الأستاذ طلبة ، وعن الكتاب الذى أهداه الأديب الأستاذ طلبة للبنت عزيزة بتاعة اليانصيب وعندما حكى القصة للشيخ شهاب كبير الأدباء أضاف إليها أنه ضبط الأستاذ أكثر من مرة وهو ينظر إلى البنت عزيزة نظرات من إياها ، دا راجل كبير لكنه مش مظبوط ثم هوه فاهم إيه ؟ دنا لو قلت للراجل أبوها دا ممكن يقتلها ويشرب من دمها ، يمكن يقتله هو راخر ولما سمع الشيخ شهاب بالحكاية ضرب كفا بكف وقال ساخرا :

بقى الأستاذ طلبة رفض يدينى كتاب ويدى البنت عزيزة ! وقال ريعو للشيخ شهاب .

– الحقيقة يا مولانا الشيخ كل الأدباتية اللى بيقعدوا هنا ناس محترمين ، إلا طلبة دا ، طبعه حاجة ثانية ، وبلاش الواحد يتكلم .

ولما شجعه الشيخ شهاب على الكلام قال ريعو :

– أقول إيه بس يا مولانا ، طب وحياة دى النعمة (وأشار إلى كوب الشاى) أنا شايفه بعينى دى اللى هياكلها الدود ، وهو بيطبطب على البنت

– قدام الناس يا واد يا ريعو ؟ دا معقول ؟

– ما كانش فيه ناس يا عم الشيخ ، كان هوه بس الى ع الرصيف ، وواحد فلاح كان قاعد بعيد وبيشرب دخان .

وغاب الأستاذ طلبة فترة من الوقت فلم يشاهده أحد فى القهوة واختفت البنت عزيزة أيضا فلم يعد يشاهدها أحد فى أى مكان ولكن الأستاذ طلبة ظهر فجأة وحول رقبته كرافتة سوداء ، فقد انتقلت أخته إلى رحمة الله بعد صراع طويل مع المرض ، وعاتبه أصدقاؤه من شلة الأدباء وقال الأستاذ عكاشة :

– طيب اتصل بأى واحد منا ، أو أنشر نعيا فى الجرايد :

ورد الأستاذ طلبة قائلا :

– والله يا إخوانى أنا كنت فى حالة سيئة للغاية ، انتو عارفين إنها أختى الوحيدة ، واضطررت إلى دفنها فى قريتى مع والدتها حسب وصيتها ، والحقيقة أننى كنت فى حالة دوخة أشد من دوخة السكران ، والكارثة أنها تركت لى طفلين لا أعرف كيف اتصرف معهما ، وهذا هو السبب الذى جعلنى الازم شقتى لا أبارحها إلا للشديد القوى لقد انتهت حياة الفرح والمرح وجاءت أيام الشدة والتعاسة .

وقال له الأستاذ الشيخ شهاب :

– ما عليك يا رجل ، فلا أنت أول من واجه مثل هذه الكوارث ولن تكون آخرهم .. المهم أن تنهض من بين أنقاض المصائب وتواصل الحياة من جديد . وتساءل الأستاذ طلبة قائلا :

– كيف يا سيدنا الشيخ إن الكلام سهل كما تعرف ولكن الواقع صعب !

وانبرى الشيخ شهاب يقول بحماس شديد :

– لو أنا مكانك فى هذه الورطة كنت أتزوج من بنت غلبانة تريد الاستقرار وترغب فى الستر ، تكون قريبة إلى قلبى ومربية للأطفال الأيتام الذين تركتهم المرحومة أختك . وأظن أن دخلك يحقق لك هذه الأهداف .

– وأين هذه البنت يا مولانا الشيخ ؟ وأنت تعرف بنات هذه الأيام اللواتى يشغفن بالموضة وبالسينما والأغانى والحفلات .

– أنا لا أقصد هذه النوعية من البنات يا سيد طلبة أنا أتكلم عن بنات من نوع آخر ، بنات يحلمن بحياة مستقرة وكريمة وكل ما يبحثن عنه هو الستر فى ظل رجل طيب وبار ويستطيع حمايتهن .

– ومن أين لى بهذه البنت يا عمنا الشيخ ؟

– البنت عزيزة بياعة اليانصيب .

ألقى الشيخ شهاب الذى كان يهوى النكتة ويحب المزاح بهذه

القنبلة التى هزت القهوة هزا ، وثار الأستاذ طلبة ثورة غطت على كل شىء فى القهوة حتى صوت الراديو وصاح : الأستاذ طلبة لم يعد غير هذا الولد الصايع ريعو يؤثر فيك يا عمنا الشيخ ؟ أنت رجل الدين والفقه والمنطق تتأثر بكلام هذا الواد التافه ؟ يا له من زمن قبيح وردىء يا عم الشيخ ، لو سمع كلامك أحد من الصالحين من أهل زماننا لصاح على الفور .. الآن بطن الأرض خير لنا من ظهرها .

كانت الضجة قد جذبت الكثيرين من داخل القهوة إلى الرصيف ، وكان من بينهم المعلم كتكوت والولد ريعو أيضا وما أن وقع بصر الأستاذ طلبة على ريعو حتى ثار بشدة وهدد بإبلاغ الشرطة لقيامه بتلويث سمعته ونشر الإشاعات ضده مع سبق الإصرار والترصد ، ثم نظر إلى المعلم كتكوت وقال :

– وأنت كمان يا معلم كتكوت عاجباك عمايل الواد الصايع ده ؟ عاجباك الإشاعات اللى عمال ينشرها ضدى ، حتى الشيخ شهاب صدق الكلام بتاعه ؟ وعلى كل حال يا معلم ـ أنا أو الواد ده فى القهوة .

ثم ألقى السلام على شلة الأدباء وانصرف غاضبا . وحاول المعلم أن يعتذر لأفراد الشلة ، وعلل بعضهم سر ثورة الأستاذ بظروفه الصعبة بعد موت شقيقته ، وعلق الأستاذ عكاشة قائلا :

– بسبب إن الواد ريعو غلطان ولازم يتأدب .

وقال المعلم فى صوت خفيض :

– أنا مش ممكن أخللى جرسون قليل الأدب عندى ، بس إنتو عارفين الظروف ، النهاردة الزبون كتير الحمد لله ، بس الصنايعى مفيش ، عشان كده ولاد الكلاب افتروا ع الآخر ، والواد ريعو بقى يبوق فى وشى دلوقت .. كان يستجرى الصنايعى يبص فى عينى وأنا با كلمه ، الدنيا أتغيرت يا بيه ثم وعد شلة الأدباء بالذهاب للأستاذ طلبة فى أى مكان ويعتذر له عما بدر من الواد ريعو ، وقال واثقا من نفسه .

– وهاخد الواد ريعو معايا وأخليه يبوس إيده ورجله كمان !

وقال الأستاذ عكاشة :

– المسألة مش محتاجة بوس الإيد والرجل . إحنا حنسترضيه بس الواد ريعو لازم يتحاسب يا معلم ، وإذا تكرر منه هذا العمل سنتضامن جميعا مع الأستاذ طلبة .. أنا بقولك أهه !

ولما كان للأستاذ عكاشة وضع خاص عند المعلم كتكوت فقد قال المعلم :

– إيدى على كتفك يا سعادة البيه ، هاتلى جرسون تانى وأنا هاطرده دلوقت ، ولكن الشيخ شهاب كان له رأى آخر ، قال بصوت غير مسموع .

– وهو ريعو عمل إيه بس ؟ إحنا مانجيش إلا ع الفقير ؟! كانت الساعة قد بلغت الواحدة بعد منتصف الليل ، فقام الجميع وانصرف كل منهم إلى بيته .

١٥ عـــــزيزة وطلبـــــة !

غابت شلة الأدباء عن قهوة كـتكوت ثلاثة أيام كاملة. لم يعرف أحد سبب غيابهم، ولكن المعلم كـتكوت تصور أن غيابهم كان وراء تصرف الواد ريعو مع الأسـتاذ طلبة، وانتـهز المعلم فـرصة تعثـر الواد ريعو وسقوط الصينية التى كان يحملها على كفه وتحطم ما عليها من أكواب. واندفع المـعلم نحوه كـالثور الهائـج ولطمه لطمـة شديدة على وجـهه جعلت الشرر يتطاير من عين ريعو.

وقال له المعلم وهو يسب الأخضرين :

– شاطر تطفش الزباين وكمان تكسـر الكوبيات، ما تغور فى داهية يا أخى وتريحنى من وشك.

وانزوى ريعو خلف باب القهوة مـخفيا عينه المتورمـة بقبضة يده. وتركه المـعلم فى وقفـته ولم يبد أى اهتـمام به، وراح يحـمل الطلبات بنفسه إلى الزبائن. ولما شعر بالتعب واستبد به الغيظ توجه نحو مخبأ الواد ريعـو وفى نيتـه ضـربه علقة من الـنوع الذى أوصى به سيـدى حسـان اليمانى. ولكن دهشـته كانت كبـيرة عندما لم يجـد ريعو خلف الباب. وخطف المـعلم نظرة خاصـة على القهوة كلهـا ولم يلمح أى أثر لريعو، فاقـتحم النصبة وفتشـها وفتش المخزن الملحق بهـا ولم يعثر على ريعـو ووقف المـعلم عند باب النصـبـة وراح يضرب كـفـا بكف ويتساءل بصوت عال :

– راح فين ده؟ الأرض بلعته. ثم قال مهددا :

– طيب يا ريعو الكلب بس لما عينى تقع عليك !

عانى المعلم كتكوت كثيرا بعد غياب الواد ريعو.. ولام المعلم نفسه بشدة عندما عادت شلة الأدباء إلى القهوة واكتشف أن غيابهم لم يكن له علاقة بما وقع بين الأستاذ طلبة وريعو. واستعان المعلم بزبون للقهوة أبدى رغبته فى المساعدة، وهو موظف سابق على المعاش، وكان عليه دين للقهوة بلغ عدة جنيهات فشل فى تدبيره عدة شهور، ولعله وجدها مناسبة لإرضاء المعلم، وفى الوقت نفسه كانت فرصة له لمعاودة شرب الشاى الذى حرم نفسه منه فترة طويلة، وبالطبع لم يكن أحد يضيف ثمن هذا الشاى على الحساب القديم، وعندما طلب منه المعلم أن يستريح شاكرا له خدماته، رد بانفعال :

– أنت يا معلم طول عمرك بتخدم الناس، فيها إيه لما نخدمك.

ولكن لا المعلم ولا الموظف المتطوع نجحا فى سد الفراغ الذى تركه الواد ريعو. ولذلك قرر المعلم آخر الليل أن يدوس على كبريائه وأن يذهب فى الصباح إلى حيث يسكن ريعو ليجره من يده إلى القهوة، حتى لو اضطر المعلم إلى لطع بوسة على رأس الواد ريعو، والاعتذار له عما بدر منه!

فى الصباح الباكر شق المعلم طريقه عبر شارع عباس إلى «المقلب» وراح يغوص فى تلال الزبالة بينما سد منخريه بأصابعه ليبعد عنه الروائح الخبيثة المنبعثة من المكان. وبعد أن دق على الباب عدة دقات أوجعته راح ينادى بصوت عال على الواد ريعو ولكنه لم يتلق جوابا على الإطلاق. وفى النهاية اطلت الحاجة صاحبة البيت وأبلغت المعلم بأن الواد ريعو لم يحضر إلى البيت منذ عدة أيام، وعبثا حاول المعلم أن يعرف من الحاجة أى معلومة عن المكان الذى ذهب إليه ريعو ولكن دون جدوى. عاد المعلم أدراجه مخترقا نفس الطريق الذى سلكه فى الصباح، وشعر بالغيظ الشديد يأكل قلبه، لقد خذله الواد ريعو وأنكر فضله. فهو الذى التقطه من الشارع وهو الذى سمح له بالمبيت فى القهوة عوضا عن الشارع، ثم علمه صنعته التى احترفها

بعد ذلك. ولكن أين يعثر على ريعو الآن؟ وما العمل لضمان حسن سير العمل فى القهوة؟

تحولت مشكلة ريعو إلى مشكلة عامة، حتى شلة الأدباء قضوا السهرة كلها فى الحديث عن مشكلة ريعو. ووصفها الشيخ شهاب بأنها مشكلة حقيقية تعانى منها مصر كلها فى الأزمنة الحديثة، وقال إنه فى شبابه اعتاد القعود على قهوة المعلم السروجي، وخلال عام واحد تعامل مع ثلاثين جرسونا بواقع ثلاثة جرسونات كل شهر. وكانت أى غلطة يرتكبها الجرسون تؤدى إلى فصله. وكانت يومية الجرسون عشرة قروش والوردية تستغرق ١٢ ساعة وأحيانا أكثر. ومع ذلك كان الجرسون يقضى وقتا طويلا أمام المعلم يستعطفه ويتوسل إليه أن يبقيه فى العمل. كان العاطلون على قفا من يشيل، وكان من بينهم من يقبل أجرا أقل من عشرة قروش فى اليوم. اليوم تغيرت الأحوال وأصبح العامل هو سيد الموقف، وأصبح المعلم هو الذى يستعطف العامل ويتوسل إليه. وختم الشيخ شهاب حديثه قائلا :

- إنها علامة من علامات الآخرة.

ولم يكن غياب الواد ريعو فقط هو الذى أدى إلى هذا الانقلاب فى روتين قهوة كتكوت، ولكن غياب الأستاذ طلبة هو الآخر لفت إليه الأنظار خصوصا فى محيط شلة الأدباء. فمنذ ذهب الأستاذ طلبة غاضبا من تصرفات الواد ريعو لم يقع بصر أحد عليه، حتى الأستاذ الشيخ شهاب مر عليه فى منزله ذات يوم ودق عليه الباب ولكنه لم يتلق جوابا، ولم يعطه البواب جوابا شافيا عن السر فى غيابه. وإذا كان غياب الواد ريعو مبررا بسبب اعتداء المعلم عليه وعلى مشهد من الزبائن، فما السر فى غياب الأستاذ طلبة؟ هل تصرف ريعو معه يؤدى إلى قطيعة نهائية بينه وبين القهوة ؟

يالها من أيام أسود من قرون الخروب مرت على المعلم كتكوت، فى كل يوم يظهر فى القهوة جرسون جديد، ويمضى اليوم كلشنكان ولكن فى المساء تدب الخناقة بين الجرسون والمعلم كتكوت - صابر حسنين

لم يحتمل ملاحظة أبداها المعلم فخلع الفوطة وترك القهوة وأسرع إلى الشارع وغاب فى الزحام. ولكن تصرف الواد حسنين كان مختلفا، عندما صرخ المعلم كتكوت فى وجهه طالبا منه فى لهجة آمرة :

– ما تتلحلح يا واد وانت واقف زى الحمار المجروح كده والزباين قطعت إيديها م التسقيف.

رد الواد حسنين قائلا :

– أنا مش حمار يا معلم أنا بنى آدم زيك وعيب تقل أدبك قدام الزباين ورد المعلم وعلامات الشر بادية على وجهه :

– أنت بترد علىّ يا واد ؟

– بقولك إيه ؟ فوق لنفسك، أنت راجل كبير فى السن واحفظ أدبك، ورب الكعبة أخللى اللى ما يشترى يتفرج عليك.

عند هذا الحد لم يستطع المعلم السيطرة على نفسه، اندفع نحو الواد حسنين ولطمه على وجهه لطمة قوية، وفى غمضة عين كان الواد حسنين قد حمل المعلم بين ذراعيه وألقى به على الأرض، ثم خلع الفوطة ورماها على المعلم الممدد على الأرض، ثم بصق عليه وغادر القهوة وهو يبرطم بكلام غير مفهوم. وضع المعلم كتكوت ذراعه فى الجبس بعد هذه «الوقعة» التى حطمت عظام جسمه، واكتفى بالقعود على مقعد مريح على رصيف القهوة وتغيرت أحواله فلم يعد يتدخل فى أى موضوع ولم يعد يتكلم مع الآخرين ولكن حدث بعد شهر من كسر ذراعه ما جعل المعلم كتكوت يعود إلى طبيعته المشاغبة. فقد جاء عبدالحفيظ إلى القهوة ليعمل جرسونا ليوم واحد. وهمس فى أذن المعلم بسر خطير. إن الولد ريعو هرب مع البنت عزيزة وتزوجا ونزحا إلى الاسكندرية حيث يعمل ريعو فى مقهى شهير هناك، ويعيش الزوجان معا فى حى غيط العنب، يا الله لم يلتفت أحد إلى غياب البنت عزيزة بياعة اليانصيب. ولم يربط أحد فى القهوة بين غيابها وهروب الواد ريعو. وثلاثة أيام كاملة والمعلم يهذى كالمجنون.. وهو يدور حول نفسه فوق رصيف القهوة :

– صحيح، تربى الكلب ينفعك، تربى البنى آدم يقلعك!

قال له الشيخ شهاب ذات مرة :

– وناوى تعمل إيه يا معلم؟ هتفضل تولول كده زى الأرملة.

– هو مين؟ دنا هاجيبه لو كان فى بطن أمه.

كان واضحا أنه يقول هذا الكلام من غلبه. وأنه رجل عاجز وغلبان ومهزوم أيضا، وأنه لا يستطيع أن يفعل شيئا سوى الانتظار والكلام ولكن الموظف السابق الذى عمل جرسونا فى وقت سابق ليضمن الحصول على الشاى قعد مع المعلم ذات صباح وأقنعه بأنه قادر على الوصول إلى الملهى الذى لجأ إليه الواد ريعو وزوجته.

– مادام قاعد فى غيط العنب يبقى اطمئن يا معلم.

تساءل المعلم فى لهفة :

– إزاى يعنى ؟

– ما هو أنا فى مبدأ حياتى اشتغلت فى اسكندرية وسكنت فى غيط العنب وأعرف كل الناس هناك، ويبقى حظنا كويس لو كان المعلم أبو عوف لسه عايش.

– مين أبو عوف دا ؟

– دا راجل زى حضرتك كده. الناس كلها تهابه وتعمل له ألف حساب، زى ما تقول فتوة غيط العنب يعنى، وراجل طيب ويخدم الناس لوجه الله، لو كان عايش هيجيبه من تحت تقاطيق الأرض.

– وأنت تعرفه الراجل ده ؟

– دا صاحبى الروح بالروح، ماكانش يقعد ولا يشرب الشاى ولا يفطر الصبح بدرى إلا مع محسوبك.

– طيب أنت فاضى تيجى معايا المشوار ده.

فكر الموظف السابق بعض الوقت ثم قال :

– وحتى لو مشغول أفضى نفسى عشانك يا معلم.

واتفق المعلم كتكوت والموظف السابق على السفر إلى الإسكندرية. ولكن قبل يوم واحد من السفر فاجأ المعلم كتكوت الموظف السابق

بأنه صرف النظر عن السفر معه إلى الاسكندرية لأنـه يحتاجه فيما هو أهم من السفر. وتساءل الموظف السابق :

– خير يا معلم .

– أنا مش هلاقى أحسن منك ياخد باله م القهوة.

– مش فاهم يا معلم.

– مانت عـارف.. أنا واحدانى لا ورايا ولا قـدامى - هسيب القـهوة وأمـشى هتتـاكل، والناس مـا بقـاش فى قلوبهم رحـمة، وأنت عـارف الزباين وعارف العيال الكل شغالين فى النصـبة أنت أقعد باشر القهوة وهاديلك خمس جنيهات كل يوم.

– من غيـر فلوس يا معلم، بس أنت عـارف الدنيا بقت غـالية أد إيه وع العمـوم أنا خدامك. بس برضـه عاوز أقولك إن سـفرى معـاك كان أحسن.

– أنا أصلى من غيـر مؤاخذة قابلت الـضابط مصطفى شمـعة اللى كان فى المباحث هنا فى الجيزة، ودلوقت هو فى اسكندرية ولما عرف حكاية الواد ريـعـو والبنت عـزيزة قـالى لى تعـالالى اسـكندرية وأنا هاجـيبـولك. وفعـلا خد منى صـورته واسمـه بالكامل ونمرة البطـاقة بتاعته، وإن شاء الله ربنا هيكرمنى.

غادر المعلم كـتكوت مصر إلى الأسكندرية، وقعـد الموظف السابق مكان المعلم يدير القهوة بطريقة أفـضل، وغاب المعلم عدة أيام قبل أن يعود إلى الجـيزة، ولكنه عاد وقـفاه يقمـر عيش كمـا وصفه عم عـبده الصنايعى الذى يباشر العمل فى النصبة.

– وعملت إيه يا معلم فى اسكندرية؟

– الراجل الظابط كـتـر ألف خـيـره عـمل بأصله. بس الواد ريعـو مالوش وجـود فى غيط العنب ولا فى اسكندرية كلهـا، يظهر الواد اللى نقل لنا الخبر دا كداب.

– وناوى تسكت يا معلم؟

- مين دا؟ هوه هيروح منى فين، دا لو كان عند العفاريت الزرق برضه هاجيبه.

طلب المعلم من الموظف السابق أن يواصل مهمة الإشراف على القهوة لأنه قرر التفرغ للبحث عن ريعو، وبالفعل خطف رجله فى اليوم التالى إلى بيت عزيزة والتقى مع أبيها الذى كانت رائحة البوظة تفوح منه، وعندما سأله عن عزيزة هب صارخا :

- ماعنديش بنات هنا وماليش بنت اسمها عزيزة.

- أصل أنا سمعت إنها.

وقاطعه والد عزيزة بحركة عصبية قائلا :

مش عاوز اسمع أى حكاية عن عزيزة، وأنا ما عرفش حد اسمه عزيزة، ولا كان عندى حد اسمه عزيزة.. وكفاية كده يا معلم بقى، عشان أنا اللى دهانى مكفينى.

- لم يستطع المعلم أن يصل مع والد عزيزة إلى شىء. فآثر السلامة وعاد إلى القهوة وقد تأكد أن الأبواب كلها مغلقة، وأن الواد ريعو اختفى من حياته إلى الأبد. ولكن الجرسون عبدالحفيظ الذى همس فى أذن المعلم ذات صباح بأن ريعو والبنت عزيزة فى غيط العنب جاء إلى القهوة مرة أخرى حاملا نبأ جديدا ومثيرا.

- البنت عزيزة يامعلم بتيجى تشوف أهلها أول كل شهر. وبتيجى يا معلم شايلة ومبضعة ولابسة موضة وحالتها معدن خالص.

لم يكذب المعلم الخبر فقرر أن يرابط عند أحد البقالين أصدقائه بالقرب من مسكن أسرة عزيزة وثلاثة أيام كاملة والمعلم مربوط على مقعد أمام البقالة مدعيا للبقال صديقه أن الولد ريعو لهف إيراد القهوة لمدة شهر كامل وفص ملح وداب وكاد يفقد الأمل فى العثور على عزيزة، ولكن ربنا أراد للمعلم أن ينجح فى مسعاه فى آخر لحظة. فقد ظهرت البنت ثالث يوم فى الشهر. ويا سبحان الله.. كم تغيرت عزيزة، الذى لا يعرف أصلها يتصور أنها بنت ذوات أو خوجاية. وجاءت تحمل أشياء كثيرة. ولكن هل تغيرت أحوال ريعو إلى هذا الحد؟ ودخلت

عزيزة إلى الأسطبل الذى تقيم فيه وغابت طويلا. ولم تخرج إلا بعد غروب الشمس، وخرج خلفها الرجل الدنف أبوها. ولكنه لم يصاحبها أكثر من عدة خطوات ثم تركها وعاد إلى الإسطبل من جديد.

ونهض المعلم كتكوت وتعقب عزيزة، اخترقت شارع عباس ثم انحرفت ناصية سينما الفانتازيو، ثم خرجت إلى شارع الترماى ومرت أمام قهوة سان سوسى، ثم دخلت القهوة من الباب المطل على شارع المدارس وخرجت من الباب المفتوح على شارع مراد، وانحرفت يسارا فى طريقها إلى حديقة الحيوان.

وقبل أن تقطع مسافة كبيرة لحق بها أحد الأفندية وتبادلا الحديث ثم راحا يقطعان الطريق معا. وأسرع المعلم كتكوت وراءهما حتى لحق بهما.. ياقوة الله.. مين؟ الاستاذ طلبة.. طلبة وعزيزة لقد كان ينتظر ريعو وعزيزة، ولكن ها هى الحقيقة أمامه عارية بلا غطاء. الأستاذ طلبة وعزيزة، وعزيزة أصبحت أنثى تؤكل مقشرة ولا اللوز الحلبى. ولكن ما العمل الآن؟ هل يمسك بتلابيب عزيزة؟ وما علاقته بعزيزة؟ ثم ما علاقة عزيزة بالأستاذ طلبة؟ هل هو زوجها؟ هذه كلها حقائق لابد من معرفتها جيدا قبل الإقدام على أى خطوة من هذا النوع؟ المهم أن المعلم تعقب عزيزة وطلبة حتى اختفيا داخل عمارة على شاطىء النيل بالمنيل. وانفجر خبر عزيزة وطلبة فى قهوة كتكوت كالقنبلة. وأعلن الشيخ شهاب عن عزمه لزيارة طلبة لكشف حقيقة الأمر. وعلق الشاعر خميس على الموضوع ساخرا :

– يظهر إن عزيزة قرأت كتاب الأستاذ طلبة فوقعت فى غرام الأستاذ من أول سطر.

وقال الأستاذ عجماوى.

– ما حدث ليس الأول من نوعه.. فقد تزوج الفنان المبدع تولوز لوتريلى؟ من بنت بياعة خضار فى سوق باريس. وتزوج الشاعر الانجليزى الكبير بيرون من بنت كانت تقدم الخمور لرواد بار بائس فى أثينا. فما هو الغريب فى ارتباط طلبة وعزيزة؟

١٦ البحث عن ريعو

انفجرت حكاية عزيزة وطلبة كالقنبلة فى قهوة كتكوت، وكان لانفجارها دوى رهيب فى الجيزة كلها. عزيزة تزوجت طلبة، وطلبة اختار عزيزة من بين نساء الأرض جميعا، وعزيزة بنت الإسطبل أصبحت تعيش فى شقة على شاطىء النيل. ولكن المعلم كتكوت أقسم بكل المقدسات أن عزيزة تعيش مع طلبة فى الحرام، وأنه تزوجها بعقد عرفى، والعقد العرفى - كما أكد المعلم - ليس فى شريعة الإسلام.

ولكن عزيزة ليس لها ذنب، الذنب كله هو ذنب الرجل الديوث الخمورجى أبوها، كان يكذب عندما ادعى أنه لا يعرف مكانها وكان يناور عندما ادعى أمام المعلم كتكوت أن البنت لا ترغب فى الزواج وهددته بالهروب بعيدا عن أهلها إذا أجبروها على ذلك.. إنه سر فى حياة المعلم كتكوت حرص على إخفائه عن الجميع لقد قرر ذات يوم أن يتزوج عزيزة، فهى صبية وشهية وفقيرة ولن ترفض الزواج من المعلم الذى سينقلها من التعاسة إلى الحياة الكريمة كان المعلم يومها فى الواحدة والستين من عمره وكان ممتلئا صحة وشبابا ويشعر بأنه لا يزال فى الثلاثين.

ولكن الديوث «أبوها» زعم أن البنت ترفض فكرة الزواج مع أن الرفض كان من جانبه كان يتطلع إلى أفندى ينفق على عزيزة وينفق أيضا على الأسرة كلها ولكن كل شىء سيعود إلى أصله لو ظهر الولد

ريعو، لأن ريعـو لن يسكت على هذا الوضع الغريب، فهـو يحب عزيزة وعزيزة هى الأخـرى تحبـه، وكان على خَقٍّ فى ثورته يوم أهـداه طلبة كتـابا لعزيزة لو ظـهر ريعو الآن لفـتح كرش الأسـتاذ طلبـة، وبالطبع سيذهب ريعو فى الحـديد وسيخلو الجو للمعلم كتـكوت ليتزوج عزيزة ويأخذها فى حـضنه وستعـيد له شبـابه الذى ذهب بالتأكـيد. لا شىء يعيد الشـباب للعجوز إلا الصبايا فى سن عـزيزة. وراح المعلم كتكوت يشـمشـم حول المكان الـذى يمكن أن يوجـد فيـه ريعـو هل ذهب إلى السـجن؟ لو ذهب إلى السجـن فهـو لابد كان سـيتـصل بالمـعلم لأنه بالتأكيد سيحتاج إلى سجائر وملابس، وعدم اتصاله بالمعلم هو الدليل القاطع على أنه لم يذهب إلى الـسجن. هل ضربته سـيارة على الطريق وفشلوا فى معـرفة أصله وفصله فدفنوه فى مقـابر الصدقة؟ ومع ذلك لم يكف المعلم كتكوت عن مساعيه لمعرفة مصير الواد ريعو سأل على الصـعيـدى إذا كان يسـتطيع مـعرفـة وجـوده فى السجن وقـال على الصعيدى للمعلم :

– اللى زى ده مفيش قدامه غير سجنين.. الاستئناف فى باب الخلق أو سـجن القناطر، لأن اللى زى ده هتكون تهـمتـه إيه؟ جنحـه مفـيش حاجة تانية، يعنى سنتين ولا تلاتة ولازم هيكون فى واحد م السجنين دول، وبعد يومين بالضبط هاجيبلك الخبر المظبوط.

وعاد على الصعـيدى بعد أيام بنبأ كـان السبب فى مضاعـفة هموم المعلم كتكوت :

– الواد ريعـو مـالوش أثر فى سـجن الأسـتـئناف ولا فى سـجن القناطر!

وأجاب المعلم كتكوت وهو ينفخ :

– أمال راح فين الحمار ده ؟

– الغايب حجته معاه يا معلم.

أهمل المعلم كتكوت القهوة تماما وسلمها للموظف السابق، وانشغل

بموضوع عـزيزة وطلبة، وأصبح شغله الشاغـل البحث عن الواد ريعو وشـعر المـعلم بالراحة بعض الشـىء عندما مـر عليه الواد أبو سـريع العجلاتى وأخبره بأن الواد ريعـو فى العراق وأنه رآه بعينيه يعيش فى حى المربعة ببغداد.

– وبيشتغل إيه هناك ياد يابو سريع.

– هيشتغل إيه يعنى يا معلم ؟ مهندس،؟ أهو زى ما هو.. قهوجى.

– وبياخد كام هناك يعنى ؟

– بياخد كويس، وبيحول وبقى معاه دورارات!

– وهيه الدورارات ياد تغنى الراجل عن الوطن ؟

– وهو إيه الوطن يا معلم، الوطن اللى تلاقى فيه عدلك.

– وهوه كان جعان هنا ياد ولا عريان.

– وهيه الدنيا أكل وهدوم بس يا معلم، دا لوقعد هناك سنتين يمكن هييـجى تمام، يشوف له مطرح ويتجـوز كمان وضحك المـعلم ضحكة ساخرة وقال :

– يتجـوز؟! يتجوز مين، مـا هى اللى كان حاطط عينه عليـها هربت مع الأستاذ طلبة وقاعدة معاه فى الحرام؟

– هيه مين دى يا معلم ؟

– السفيرة عزيزة؟

– عزيزة مين؟

– عزيزة بتاعة اليانصيب، بنت الراجل الخمورجى اللى ما عنده ذمة ولا دين.

– وبتقول هربت مع مين؟

مع الأستاذ طلبة.

– الأستاذ طلبة مين؟

– دا من الناس اللى ما تعرفهومش أنـت، من الجماعة الأدباتية اللى بيكتبوا فى الجرايد.

- وإيه اللى لم الشامى على المغربى؟
- الوعد والمكتوب!!
سكت المعلم فترة وشرد بعيدا ثم سأل أبو سريع.
- والواحد يتصل ازاى بالواد ريعو.
- لا.. دانت تسافر له بقى، العراق فيها مصريين كتير.
- والسفر دا يتكلف كثير؟
- حق التذكرة فى الطيارة، ومية جنيه فى جيبك، إذا كنت ناوى تقعد هناك كام يوم، وبعدين لو عاوز نصيحتى، خد معاك شوية ثوم.
- ثوم ؟ ليه.. هنطبخ ملوخية هناك ؟
- أصل الثوم غالى قوى هناك اليومين دول.
- وأنا رايح أتاجر.
- لمؤاخذة يا معلم، هو إنت اللى مسافر؟
- لسه بفكر، أصلى أنا محتاج الواد ريعو قوى، بينى وبينك القهوة خابت بعد ما سافر، والحتة اللى قاعد فيها اسمها إيه؟
- المربعة يا معلم.
- ولو سألت هناك يدلونى على طول.
- دى حتة معروفة يا معلم، زى ما تقول هنا شارع محمد على، الأزهر، فم الخليج، حاجة زى كده يعنى.

عاش المعلم كتكوت الأيام التالية يفكر بعمق فى خطواته القادمة، لم يدرك المعلم كتكوت أن القهوة تدهورت أحوالها بسبب إهماله لها، إلا عندما راجع الإيراد واكتشف أن الحال ليس على ما يرام ولأول مرة منذ مدة طويلة يسأل الموظف السابق الذى يدير القهوة عن شلة الأدباتية وهل يحضرون أحيانا أم أنهم انقطعوا عن الحضور، وعندما جاءه الجواب بانقطاعهم منذ مدة طويلة، تساءل المعلم فى غير حماسة وكأنه يسأل نفسه :
- وما حدش عرف إيه الحكاية ؟

– مين هيسأل يا معلم؟ إحنا أيام كثيرة بنشتغل بأيدينا وأسناننا، والعمال أغلبهم سافر العراق، والحكاية بقت مقشفرة ع الآخر.

واستبد الهم بالمعلم كتكوت فلو أن الولد حسن ـ ابنه الوحيد الذى بقى على قيد الحياة ـ استمع إلى نصيحته وكف عن افتعال المعارك ضد الآخرين، لكان الآن على قيد الحياة ولكان الآن ذراعه اليمنى فى الورطة التى يواجهها الآن. كم مرة نصحه بالابتعاد عن جماعة الكوامل الذين يحتلون الرصيف المواجه للقهوة.

إنهم نوع صعب من البشر مستعدون للموت فى سبيل الحصول على ما يعتقدون أنه حق لهم وهم أقوياء ومتحدون ولكن حسن كان مغرورا بقوته الجسدية، ويتصور أنه قادر على هزيمة أعدائه وحده دون معين.. يا له من يوم أسود من قرون الخروب عندما جاء إلى القهوة فى الصباح الباكر ليجد جثة حسن مطروحة على الرصيف وآثار معركة رهيبة تبدو واضحة على الجدران وأرضية الشارع وبقايا أقفاص الموز التى تبعثرت محتوياتها على الرصيف، مات حسن بضربة شومة على رأسه جعلت مخه يتناثر على الحيطان مع بقع دم كبيرة منه ومن منافسيه فلم يكن حسن لقمة سائغة، ولكن الكثرة تغلب الشجاعة كما يقولون!

ما العمل الآن يا معلم كتكوت؟ والسفر إلى العراق أصبح أمرا ضروريا خصوصا وقد عرف من الولد «أبو سريع» أن السفر لا يحتاج إلى التأشيرة فدخول العراق مباح لكل العرب، وليس مثل بلاد الخليج دخولها يحتاج إلى تأشيرة وإلى كفيل. لا كفيل فى العراق إلا الله الواحد الأحد الذى يكفل الجميع،، وفى المساء كان يجلس مع الموظف السابق «عبدالمقصود» وبادره المعلم قائلا :

– شوف يا خويا يا عبدالمقصود، إنت راجل طيب وأنا ارتحتلك، وبعدين أنا مسافر العراق كام يوم كده، وماحدش يعرف الموت م الحيا.. والغيب فى علم الله، عشان كده أنا فكرت اسيبلك القهوة بس

بالإيجار، وهنكتب ورق عشان كل واحد يعرف راسه من رجليه.

وقال عبدالمقصود والدهشة لم تفارقه

- وبكام يا معلم.

- أنا مسامح بـ ٥٠٠ جنيه فى الشهر، ودا عشان خاطرك، واللى هيطلع منها حلال عليك.

- مش كتير يا معلم ؟

- أنا حددت المبلغ دا عشان خاطرك وبعدين أنا مسامح وربنا يباركلك.

ورد عبد المقصود على الفور :

- اللى تؤمر بيه يا معلم.

- خلاص، أنا قلت للواد كامل، الكاتب بتاع الأستاذ صالح المحامى ييجى القهوة بكرة ويكتب العقود، ونروح بعد بكرة نسجلها فى الشهر العقارى وعلى بركة الله. تمت الإجراءات كلها بسرعة وأصبحت قهوة كتكوت من نصيب عبدالمقصود، يتصرف فيها كما يشاء إلا الاسم، فستظل إلى الأبد قهوة كتكوت وذات صباح ارتدى المعلم كتكوت اللى على الحبل كله واستقل الطائرة المصرية إلى بغداد. فى الطائرة تمنى العثور على الواد ريعو بسرعة وأن يقوم بترحيله إلى القاهرة على الفور ولو استدعى الأمر منحه نسبة من أرباح القهوة. ويا سلام لو سنحت الفرصة بالقيام بعمرة فى الأراضى المقدسة، يقولون إن الحجاز على مقربة من العراق، فتكون زيارة وتجارة فى الوقت نفسه، لو تحقق كل هذا الذى يحلم به المعلم كتكوت، فإنه يكون قد نال كل ما يتمناه.

عودة ريعو والانتقام من الأستاذ طلبة خاطف عزيزة والعودة إلى مكانه وراء المكتب فى القهوة واستئناف الحياة كما يشتهى، ويضمه بيت واحد مع عزيزة التى ستعيد إليه شبابه المفقود فى مطار بغداد لفتت نظره المعاملة الخشنة التى يعامل بها المصريون ولكنه لم

يتوقف عندها طويلا فهذه المعاملة يجدها العمال المصريون فى مطار القاهرة نفسه، واسترعى انتباهه أسئلة رجال الجمارك للمعلم عن البضائع التى يحملها معه ثم دهشتهم الشديدة عندما لم يعثروا معه إلا على ملابسه.. غريبة!! لم يشاهدوا أحدا مثله من المصريين القادمين منذ مدة طويلة. فتشوه بسرعة وتركوه ينصرف، وفى التاكسى الذى اشترك فيه مع آخرين من المصريين اكتشف أن الجميع فى طريقهم للمربعة بعضهم كان من المترددين على بغداد منذ فترة طويلة، وبعضهم يضع قدمه على أرضها لأول مرة عندما وقع بصره على المربعة أول مرة هتف : يا سبحان الله الخالق الناطق مثل حى الفوالة ومثل سوق الليمون فى باب الشعرية والناس كلهم من مصر، أصحاب المحلات والعمال الذين يعرضون ما جلبوه معهم من بضائع على الرصيف وهى بضائع بسيطة، ليمون بنزهير، ثوم، مجموعة فونيات لبوابير الجاز، علب زيت طعام، راح يسأل عن الواد ريعو ولكنه اكتشف أن أحدا لا يعرفه، بعضهم قال له :

– يمكن فى البصرة يا معلم، أو مين عارف يمكن فى دهوك.

– وفين البصرة ؟

– لزق فى الكويت لا مؤاخذة.

– ودى عاوزة تأشيرة؟

– لا يا معلم، دى حتة من العراق، زى ما تقول أسيوط كده.

وركب المعلم مع بعض المصريين إلى البصرة يا سلام على أرض العراق، الخالق الناطق زى أرض مصر بس للأسف مش مزروعة كلها، والملح باين فى الأرض مع إن «النيل» ماشى فى قلبها وها هى البصرة حاجة كدة زى رشيد من غير مؤاخذة، والناس بتوع العراق ـ الحق يتقال ـ أجدع ناس من غير مؤاخذة. الشىء الوحيد الذى ضايقه بشدة.

– الواد ريعو مالوش أثر هنا.

– يمكن راح دهوك يا معلم.

- ودهوك دى فين؟
- دى جنب تركيا يا معلم.
- عجايب هيه تركيا النواحى دى كمان؟ لكن مين اللى هيودى ريعو هناك؟
- أكل العيش يحب الخفية يا معلم.

عاد المعلم كتكوت إلى بغداد وإلى المربعة من تانى. من حسن حظه أنه التقى بسواق مصرى على نياته يذهب إلى دهوك مرة كل أسبوع اتفق المعلم على السفر معه.

- يا حلاوة يا ناس على دهوك، داناس خواجات كلهم وبيرطنوا من غير مؤاخذة.. ودول مسلمين كمان ؟
- مسلمين وسنّة يا معلم.
- يا سلام على قدرة ربنا، ويخلق مالا تعلمون.

لكن الأمر المؤسف أن ريعو ليس له وجود هنا أيضا.. طيب يا ريعو الكلب أنا وراك والزمن طويل وعاد المعلم من جديد إلى المربعة فى بغداد يبدو أن الدنيا مستمرة فى عنادها ولابد من العودة إلى القاهرة.. نصحه أحدهم إذا رغب فى العودة أن يذهب بجواز سفره إلى إدارة المواطنين العرب ليحصل على تأشيرة الخروج. لم يفهم المعلم ما هو المقصود من تأشيرة الخروج ولكنه ذهب يا قوة الله، الناس تحيط بالمبنى وكأنهم فى يوم الحشر ناس من كل الأمم، دا مصرى ودا سودانى ودا تونسى ودا يمنى ودا لبنانى، ودا مسلم ودا ارثوذكسى، أمم من غير مؤاخذة، والشمس حراقة يا أبا، والعساكر ما بترحمش، والضرب فى الناس على ودنه، ودى بهدلة إيه ده؟ مش لازم تأشيرة خروج، ما يمشى وخلاص، وبالفعل لم يستمع إلى نصيحة أحد، أخذ بعضه وذهب إلى المطار وعبثا حاولوا إفهامه أن السفر مستحيل بدون تأشيرة خروج وصرخ بأعلى صوته وسب الأخضرين.

- عجايب يا ناس ، قال بطلوا دا واسمعوا دا ، دى بلد أو فخ قال

إيه ؟ تيجى يا مرحبا بك تخرج لا، دا حمار مين اللى عمل النظام ده.

انهال العساكر على المعلم كتكوت وأعطوه بسطة عراقية محترمة وأرسلوه إلى السجن ووجد المعلم نفسه أخيرا فى محكمة الثورة.

– محكمة ليه يا سعادة الباشا هوه أنا اذنبت؟ أنا عاوز ارجع بلدنا.

– فيه قانون لازم نحترمه.

– قانون إيه يا باشا، دا اللى عامل القانون دا حمار.

– بتقول مجلس قيادة الثورة حمار ؟

– مين هوه الثورة دا، أنا ما عرفش حد بالإسم دا.

– عشر سنين سجن.

– بتقول إيه؟ عشر سنين يا كافر، ليه أنا قتلت حد؟ عندما جذبه العساكر من قفاه ليخرجوه من المحكمة قاومهم المعلم بشدة.

طرح أحدهم على الأرض وكسر فك الآخر. ولذلك أعادوه مرة أخرى إلى المحكمة ليستمع إلى الحكم عليه فى التهمة الجديدة لم يتمالك المعلم نفسه عندما سمع الحكم عليه بالمؤبد.. مؤبد يا ولاد الكلب، لو كنت فى بلدى لما تعدى الحكم أكثر من شهر سجن. ومع ذلك طرد المعلم من رأسه فكرة المقاومة لأن الحكم القادم سيكون الإعدام .

استسلم لمصيره وذهب مع العسكر إلى سجن عمومى يختلف عن السجن الذى كان فيه، وعرف فيما بعد أنه على مسافة عدة كيلومترات من بغداد. يا رحمة ربنا، عنابر كلها مصريين وسودانيين وناس من فلسطين ومن الصومال.

ويا ضربة الحظ التى كان ينتظرها المعلم كتكوت لقد عثر فى النهاية على الكنز الذى كان يبحث عنه.

– حمد الله ع السلامة يا معلم.

– هوه إنت يا وش النحس ؟ يخرب بيت أبوك إنت اللى رميتنى فى المهالك دى.

– مهالك إيه يا معلم؟ كلها كام شهر إنشاء الله وتطلع على مصر بإذن الله.

- كام شهر إيه يابن المجنونة دنا واخد تأبيدة.
- ولا يهمك يا معلم، فيه ناس كانت واخدة إعدام وافرجوا عنهم، حاكم هنا كل كام شهر يفرجوا عن المساجين العرب فى عيد الثورة، وعيد الرئيس، رئيس عربى يتوسط، حاجات كتير بتفتح باب السجون وتمشى الناس من هنا.
وانت واخد كام يا وله ؟
- عشر سنين يا معلم.
- ليه عملت إيه؟
- بينى وبينك أنا غلطان، واد سواق مصرى بيشتغل مع الجيش كان بيجيب سلاح من الكويت ويدرب جنب إيران والحرب كانت شغالة، ويجيب من هنا قتلى عراقيين يدفنوهم هنا اشتغل فى التهريب، ياخد ناس معاه وهوه رايح الكويت ويلبسهم عساكر، وفى الكويت ينزلهم، كانت شغلة حلوة ومكسبها كتير، طمع.. بقى يهرب عراقيين، هرشوه ومسكوه.
- طيب وإنت مالك؟
- ما هو كان بيخبى عندى لبس الجيش اللى هيلبسوه الهربانين.
- أمال أنا سألت عنك فى المربعة ماحدش عرفك.
- مانا مارحتش المربعة دى خالص، أنا كنت فى بلد اسمها إسكندرية الشغل كتير هناك والمكاسب حلوة قوللى يا معلم.. إزاى القهوة؟
- قهوة إيه بقى، هوة احنا هنشوفها تانى!
- إيه رأيك إحنا هنشوفها قريب يا معلم كام شهر وبكره تفتكر يا معلم.

واستقر المقام بالمعلم كتكوت فى سجن «أبو غريب» ومعه الواد ريعو، الذى علم منه تفاصيل هروب عزيزة مع الأستاذ طلبة وانفعل الواد ريعو بما سمعه من المعلم، لدرجة أنه قضى الليل كله يبكى وهو ممدد على الأرض بجوار المعلم كتكوت.

١٧ شباك على دجلة!

مضت الأيام بطيئة وكئيبة فى سجن أبو غريب ، وبعد مرور عدة أشهر فقد المعلم كتكوت صبره وفقد أمله فى الخروج يوما ما من هذا القبر . وعبثا حاول الواد ريعو أن يعيد الطمأنينة إلى قلب المعلم ، ولم يكن المعلم على استعداد لسماع أى شىء عن العفو الذى سيصدر فجأة ، ويعيد المعلم من جديد إلى ميدان الجيزة وإلى قهوة كتكوت . ترى .. ما الذى حدث للقهوة من بعده ؟ هل انضبطت أمورها ؟ هل تم تجديدها ؟ هل تحطمت وتناثرت أشلاؤها ؟ والمعلم كتكوت يعرف من تجربته أن القهوة بالمعلم وليس العكس . وقهوة بدون معلم لابد يصيبها الخراب ، ولابد يهجرها الزبائن ، لأن المعلم فى دنيا القهاوى هو الأصل ، إذا كان المعلم ابن مهنة وله مهابة وموضع احترام ، فستكتسب القهوة نفس الوضع والعكس بالعكس ! وهذا الموظف الذى حل محله فى القهوة ، لا هو معلم ولا هو قادر على حمايتها ، وخروجه الآن من السجن قد يكون هو الحل الوحيد لإنقاذ القهوة قبل أن يلحق بها الخراب ، ولكن كيف يخرج من هذا القفص الحديدى الذى يشبه بيت الأسد فى حديقة الحيوان ، لابد أن هناك وسائل للخروج ولابد من اكتشافها ، وذاع أمر المعلم كتكوت بين نزلاء السجن ، وذات يوم أثناء الفسحة الصباحية تقدم منه أحد النزلاء وقدم له نفسه ، عراقى من البصرة ، ورحب المعلم بالنزيل وقال :

– أنا زرت بلدكم ، الحق يتقال بلد ترد الروح ، خصوصا النخل اللى هناك والميه اللى زى العسل الأبيض .

وسكت المعلم فترة قبل أن يسأل النزيل :

– وانت من غير مؤاخذة تهمتك إيه ؟

ورد الرجل العراقى على الفور :

– أنا من حزب الله .

وقال المعلم كتكوت :

– سبحان الله .. أنعم وأكرم . لكن من غير مؤاخذة تهمتك إيه ؟

– قلت لك أنا من حزب الله .

– ونعم بالله . لكن السجن ليه ؟ قتل ، مخدرات ، التهمة إيه ؟

– يظهر أنك مش راح تفهم . ع العموم ، انت هنا ليه ؟

– واللى خلقك مانا عارف ، أنا رحت أجيب إذن عشان أسافر ، حصلت خناقة نزل العساكر فينا ضرب ، واحنا كمان ضربناهم ، جرجرونا على الثورة .

– جرجروك على وين ؟

– محكمة اسمها الثورة . وهناك وقعت خناقة بينى وبينهم ، وعينك ما تشوف إلا النور .

– وحكموك أد إيش ؟

– يحكموا زى ماهم عاوزين ، أنا مش قاعد ، ورينى سبيل . للهرب وخيوب علىّ إذا ما هربت من هنا .

– أنصحك يا معلم ما تردد هادا الكلام : لو سمعوك هيصفوك .

– يعملو إيه ؟ يصفونى . حلوة دى ، هوه أنا قوطة من غير مؤاخذة.

ابتعد النزيل العراقى وتسلل فى زحام العنبر واختفى عن الأنظار ، وسرح المعلم كتكوت فى كلام زميله العراقى ، يبدو أن تهمته بطالة من غير مؤاخذة ولذلك أخفاها واكتفى بأنه من حزب الله ! دنيا وسيدك عالم بأحوالها ، ومن شاف بلاوى الناس هانت عليه بلوته . مر أسبوع

كامل قبل أن يرى النزيل العراقى مرة أخرى .. ولكن الرجل لم يبد أى رغبة فى الحديث إليه ، وسرعان ما غاب فى الزحام واختفى . لابد أنه معتوه هذا الشخص ، وهو معذور لأن السجن هنا يذهب بالعقول . السجون فى مصر تختلف ، المعلم دخل سجن مصر زمان فى خناقة لمدة شهر ، ولم يشاهد خلال مدة سجنه أى مظهر من مظاهر العنف كما هو الحال هنا . صحيح يوجد عساكر فى منتهى الغلاسة ، ولكن كل شى حتى الغلاسة لها حدود . بعد فترة التقى وجها لوجه مع الرجل العراقى الذى أقبل على المعلم فى شوق شديد ، ثم مد يده للمعلم بعلبة سجاير (بابل) حكمة الله أن سجائرهم من نفس النوع .. نفسها ثقيل . ولكن ما الذى جعل الرجل العراقى يتغير هكذا وبسرعة ؟ لابد أن رأسه أصابه التلف بعد قضاء عدة سنين . الواد ريعو فلحوس قال للمعلم احذر هذا الرجل العراقى وأمثاله . كان رجال المباحث يحضرون إلى المصريين فى المكان الذى يعمل فيه ويحذرونهم من أعضاء حزب الله . ويطلبون منهم الإبلاغ عنهم لأنهم يريدون انتزاع الحكم وطرد المصريين وجميع العرب من العراق . وتصور المعلم كتكوت أن الواد ريعو أصابه مس هو الآخر . فهؤلاء الناس من حزب الله ، وحزب الله هم الغالبون ، ولكن الواد ريعو مصر على أن الاتصال بهؤلاء الناس خطر ، فالحكومة علقت الكثير منهم على المشانق ، واضطر العشرات منهم إلى الهرب واللجوء إلى البرارى فى جنوب السودان ، ومئآت هاجروا إلى إيران ، ولكن المعلم كتكوت ضحك بسخرية وقال لنفسه (الواد ريعو بقى ضليع فى الفلفسة !) بعد أسبوع آخر كان عدد أفراد الحراسة أقل وأشعة الشمس تنفث موجة من الدفء فى فناء السجن المفروش بالرمال . جاء الرجل العراقى مرة أخرى ودس فى يد المعلم علبة سجائر (سومر) وقال للمعلم كتكوت فى ود حقيقى :

– شوف يا بو ...

– أبو حسن ، لو كان عايش دلوقت ماكنتش شفت المر ده ..

– الله يرحمه ، شوف يابو حسن . احنا نخاف نعمل علاقة مع جماعة المصريين اللى يشتغلون هنا . لأن وجودهم فى العراق مرهون بدخولهم عباءة حزب البعث .

لم يفهم المعلم كتكوت حرفا مما نطق به الرجل العراقى الذى واصل حديثه :

– أنا .. چبار الحسين على . وبصراحة أنا قلبى انفتحلك ، لأنك راجل صادق مالك علاقة بالحزب ولا بالمباحث .

اختفى الرجل العراقى فجأة كأنه فص ملح وذاب عندما اقتحم الحوش أحد ضباط السجن ، وهو رجل شرس وقبضة يده فى حجم البطيخة الكبيرة . ولم يمنع اختفاء الرجل العراقى چبار أن يستمتع المعلم كتكوت بسجائر السومر . ولم ينس المعلم عندما أغلق الحارس الزنزانة فى المساء أن يسأل الواد ريعو سؤالا مباغتا ربما كان رد فعل للجلسة مع چبار :

– انت ياد شغال مع المباحث هنا ؟

– لا يا معلم أنا ماشتغلتش . همه صحيح قالولى لما تشوف حاجة أو أى حد ضد الحكومة بلغنا على طول ، وأنا قلت حاضر ، بس أنا ماشفتش حاجة لحد مامسكونى وجابونى هنا .

– وخدت منهم فلوس يا ولد ؟

– لا يا معلم ، همه ما بيدوش فلوس ، انت تبلغ وهمه يسيبوك تقعد في العراق تشتغل وترزق هنا .

– عجايب ، صحيح بطلو دا واسمعوا دا .

وسأل ريعو وهو يشعر بقلق .

– هوه حد قالك حاجة يا معلم ؟

– أنا سمعت ان كل اللى هنا كان لازم يبلغوا .

– مش لو شاف حاجة يا معلم ؟ وبعدين احنا حنشوف إزاى ؟ احنا

كنا طول النهار شقيانين فى الشغل ، لكن كل الناس كانت بتقول حاضر . شعر المعلم كتكوت بالقلق الشديد ، وربما أدرك بشكل ثابت أنه وقع فى شر أعماله وأنه لن يغادر هذا البلد على قدميه . ملعون أبو عزيزة ؟ لولاها ما تعرض المعلم كتكوت لشىء مما تعرض له الآن. ولكن ما ذنب عزيزة ؟ المعلم هو سبب كل المصائب ، وعقله الزنخ هو الذى قاده إلى المهالك . ولكن هل الندم سيخلصه مما هو فيه ؟ ليس أمام المعلم الآن إلا الاعتماد على جناب الله ، فهو وحده القادر على تخليصه من هذه المحنة ورده إلى حيث ينتهى ، القهوة وميدان الجيزة وأكلته المفضلة طاجن التورلى بالكتف الضانى وسلطانية الطرشى بمية الدقة من دكان عم عبد النبى .

الواد ريعو جاء بخبر طيب وسط الأحوال السيئة . مجلس قيادة الثورة سينشر كشفا بأسماء المساجين العرب المفرج عنهم بمناسبة تأميم شركات البترول الأجنبية . قال الواد ريعو صادقا هذه المرة :

– لو الأحلام تحققت ياد يا ريعو مش هتشتغل معايا فى القهوة .

– ليه يا معلم ؟

– مش هتشتغل عندى بالأجرة بعد كده ، هتبقى شريكى ، هتشتغل معايا بنسبة ، هيبقالك حصة فى القهوة .

وصاح الواد ريعو مهللا :

– يا سلام يا ملعم ، دنا هاعمل منها جنة .

– بس يا رب كلام يطلع مضبوط ، ويكون فيه كشف صحيح .

– دا كلام الشويش نفسه .. أبو دينا السمين دا ، ودا راجل زى السيف ، وإن شاء الله هنكون فى مصر بعد كام أسبوع .

ومضت الأسابيع والشهور ولم يظهر أثر للكشف ، ويبدو أنه لن يظهر فى أى وقت ، وأخيرا ظهر الرجل العراقى جبار ، جاء إلى المعلم كتكوت ليودعه فقد تكرر نقله مع جماعته إلى سجن آخر فى الشمال فى العمادية وهو سجن تحت الأرض لا ترى فيه شمسا ولا تشم فيه

نسمة هواء ، تمنى له المعلم من قلبه أن يفك الله سجنه وأن ينعم بحريته فى المستقبل القريب . قال چبار بصوت مبحوح

– لم يدخل أحدنا السجن وكتب له أن يرى الأسفلت مرة أخرى .

رد المعلم كتكوت :

– خليك مع الله يا چبار واستبشر .

قضى المعلم كتكوت ليلته يفكر فى مصير چبار ، هل صحيح الداخل إلى هنا مفقود ، چبار وجماعته والمعلم كتكوت أيضا . لولا الخوف من أن يموت على الكفر لقتل نفسه بيده . فحتى الحيوانات لا تطيق هذه العيشة على الإطلاق . وملعون أبو العيشة على هذا المستوى خصوصا إذا فرضت على الإنسان فى نهاية العمر . فى الصباح الباكر وصياح الديكة يتصاعد فى الحقول المحيطة بسجن أبو غريب سقط المعلم كتكوت نائما أو مغشيا عليه بمعنى أصح . ولم يدر المعلم كم من الوقت مضى ، ولكنه نهض مذعورا منهك القوى فقد رأى حلما مزعجا للغاية ، جماعة من منافسيه الطامعين فى القهوة ، اقتحموا القهوة ذات مساء وضربوا الزبائن والعمال ثم حاصروا المعلم داخل النصبة ثم راحوا يضربون بالشوم على رأسه ، ثم جروه من ساقيه خارج القهوة ووضعوه مغمى عليه على شريط السكة الحديد ، وبالرغم من الإغماءة التى احتوته إلا أنه شعر بعجلات القطار وهى تمزق أوصاله ، وعندما استيقظ كانت هناك ضجة شديدة . وعدة أشخاص يفتحون باب الزنزانة فى عنف ملحوظ . خفق قلبه بشدة من الخوف ، ثم سرى فى نفسه شعور بالتفاؤل ، فمن يدرى ؟ لعلهم جاءوا بكشف الإفراج ولابد أن اسم المعلم على رأس الكشف ، ولابد أن فرج الله قريب ، وهو لا يأتى غالبا إلا بعد شدة ثقيلة . نظر إليه بعض الرجال الذين اقتحموا الزنزانة وأمروه بالنهوض . ولم يستطع أن يميز من لهجتهم أى طريق سيدفعون به إليه . ولكنه نهض ودخل مكتب المأمور معهم وخلع ملابس السجن وارتدى ملابسه التى جاء

بها إلى السجن ، لابد أنه الإفراج على بركة الله ، ولكن أين الواد ريعو . أراد أن ينبههم إلى أن ريعو يعمل قهوجى عنده وأنه مظلوم أيضا ، ولكنهم نهروه وأمروه بالصمت ثم دفعوه إلى خارج السجن واركبوه سيارة وأحاطوا به من كل ناحية وسارت السيارة تتهادى على طريق أسفلت . وبالرغم من أنه كان عاجزا عن رؤية أى شىء خارج السيارة إلا أنهم وضعوا عصابة سوداء على عينيه . وبعد حوالى ساعة زمن توقفت السيارة وأنزلوه منها ، وعندما أصبح فى المكان الذى ساقوه إليه فكوا العصابة واكتشف أنه فى سرداب تسرح فيه العناكب الصغيرة والخنافس وعلى الحوائط تزحف الأبراص من جميع الأحجام. وزفر المعلم كتكوت وهتف فى ضيق شديد (صحيح اللى مايرضاش بالخوخ يرضى بشرابه) استمر المعلم فى هذا السرداب ثلاثة أيام قدموا له الطعام خلالها مرتين ، رغيف صمون لا يكفى صبيا فى العاشرة من عمره وطبق به بعض المرق وقطعة لحم لزجة ومتهرئه وكأنها لحم برص من الأبراص التى تملأ المكان .. وبعد اليوم الثالث استدعوه للتحقيق . كان أول سؤال .. ما علاقتك بچبار .. چبار مين ؟ يا قوة الله ، هذا الرجل الذى تعرف عليه فى الحوش . علىّ الطلاق بالثلاثة لا أعرفه ، ولم أعرف اسمه إلا بعد ثالث لقاء فى الحوش . هل تعلم أنه من حزب الله ، هو چبار دا اللى قاللى . قالك إيه ؟ قاللى إنه من حزب الله . وانت تعرف فعاليات حزب الله وتعرف أهدافه ؟ أنا ما عرفش حاجة . طيب واتكلمت معاه ليه ؟ احنا يا سعادة الباشا فى سجن ربنا يكفيك شره ، والواحد ما يصدق يلاقى حاجة تشغله عن الهم اللى هوه فيه .. هل منحك بعض علب السجائر ؟ أيوه سجاير أول علبه كان نفسها حامى قوى ، والعلبة الثانية كانت أحسن ، وكان نفسى أديله حاجة بس العين بصيرة واليد قصيرة . وآخر مرة كان جاى مخصوص يودعك ..مش كده ؟ يودعنى يعنى رايح الحجاز ، أنا يا بيه معرفوش وشرفك أنت . عندما انتهى من عبارته الأخيرة

ضربه أحدهم بقطعة حديد على رقبته جعلت رأسه يميل على صدره . وجاء صوت المحقق قائلا فى حدة شديدة :

- هاتتكلم واللا نوديك الشباك .

- يا بيه هاتكلم أقول ايه ، عليّ الطلاق ما أعرف حاجة .

أشار المحقق للرجل الواقف خلف المعلم بأن يذهب به ، أخذوه إلى الشباك ، لا شباك هناك ولا يحزنون ، إنه نفق ضيق ومظلم تشعر داخله كأنك فى ماسورة ، ينتهى النفق بباب حديد من ضلفتين . وتتوسطه دكة خشبية طويلة وضيقة . أشبه بسرير عمليات ، وعلى الحوائط عدة آلات ، شواكيش ومسامير ومناشير وزجاجات رائحتها تدل عليها ، سبرتو وخل وصبغة يود وكميات من القطن والشاش . نام المعلم ليلته على الدكة وفى الصباح جاءه المحقق من جديد ، هدده بأنه إذا لم يتكلم ويقول كل شىء ، فسيكون لحمه طعاما للسمك ، وأمر الحارس بفتح باب السرداب . وتجمد الدم فى عروق المعلم كتكوت ، كان وراء الباب مجرى ماء يجرى متدفقا صاخبا وله زئير . وقال المحقق للمعلم . هذا هو نهر دجلة .. تعرفه ؟ تسمع عبد الوهاب يغنى.. ياشراعا وراء دجلة يجرى . هذا هو دجلة . وبعدين شوف . انت مصرى والمصريين بالألوف فى العراق ، عشان احنا عروبيون ونحب العرب . هذا حزب الله لو مسك السلطة راح يذبح المصريين . تحب تذبح المصريين أنت ؟ احسنلك تتكلم ، قول چبار جالك إيه ؟ وأعطاك إيه يوم ما جاء يودعك ؟ فاهم والا هانقطعك بالمنشار ونحدفك على دجلة !

●●●

لا أحد يعرف ماذا حدث للمعلم كتكوت . ولكن الأكيد أنه لم يخرج من السرداب قط ، ولم يره أحد بعد ذلك . ولكن بعد دخوله السرداب بأسابيع أصدر مجلس الثورة كشفا بالإفراج عن بعض المسجونين العرب كان الواد ريعو من بينهم .. فعل الواد ريعو المستحيل لكى

يعود إلى مصر . ونجح فى السفر برا إلى الأردن وبالمركب إلى سيناء وبالسيارة إلى القاهرة ، كان فى ظنه أن المعلم كتكوت سبقه إليها ، فقد تم الإفراج عنه قبل الكشف بأسابيع ، ليت المعلم يصدق فى وعده، يعمل فى القهوة كشريك ، وله نسبة فى الأرباح . يا سلام يا ناس ، صحيح الوطن غالى . هاهى الجيزة وكوبرى عباس وميدان الجيزة وهاهى القهوة .. أين القهوة ؟ لم يعد هناك قهوة علي الإطلاق . لقد انشقت الأرض عن عمارة ضخمة والقهوة اختفت وحل محلها دكان أحذية مستوردة من أغلى الماركات . أين شلة الأدباء ، أين الواد حميدو؟ وأين عم عبده ؟ وماذا حل بالرصيف القديم ؟ وأين الميدان نفسه ؟ لقد اختفى وراء الكبارى العلوية والأسوار ومواقف السيارات . لقد انتهت الدنيا يا ريعو ، ولكن أين المعلم كتكوت ؟

رقم الإيداع ٩٨/١٧٣٩٣
الترقيم الدولى
I. S. B. N.
977 - 08 -0797 - 4

مصر للطيران
EGYPT AIR
أكثر من ٤٠٠ رحلة أسبوعيا
إلى ٩٤ مدينة عالمية ومحلية

هذا الكتاب

« حكايات قهوة كتكوت » هى مجموعة قصص يرويها الكاتب والأديب محمود السعدنى .. وأبطال تلك القصص يمثلون شخصيات المجتمع المصرى فى فترة الأربعينات وحتى الستينات .. وهى فترة شهدت تغييرات اجتماعية خطيرة .. كما أن الحياة فيها تختلف تماما عن الحياة فى مجتمعنا اليوم .. وهى قصص وحكايات مختلفة ومنفصلة .. ولكن يجمع أبطالها شىء واحد .. إنهم من المترددين على قهوة المعلم كتكوت أشهر قهوة فى ميدان الجيزة.. وكانت تنبض بالحياة ٢٤ ساعة فى اليوم .. فى الصباح يتردد عليها كتبة المحامين وأصحاب القضايا لأن القهوة كانت أمام محكمة الجيزة .. وفى الظهيرة يجلس فيها عمال استديو مزراحى والفنانون والكومبارس .. وبعد الظهر تمتلىء بجماعة الموظفين .. وفى المساء والسهرة تتحول إلى ندوة ثقافية أبطالها من أساتذة الجامعة والأدباء الذين لا تنتهى مناقشاتهم إلا عند الفجر.. !!

وقد استطاع محمود السعدنى بأسلوبه الساخر المعروف أن يعيدنا إلى ذلك الزمان لأن نعيش مع أبطال الحكايات مشاعرهم وخناقاتهم وأيضا مآسيهم وأحزانهم.

حكايات قهوة كتكوت .. تصوير دقيق لمجتمع الأربعينات والخمسينات فى مصر .. وتحليل واقعى لتقاليد وأخلاق المصريين فى ذلك الزمان .

نبيل أباظة

الثمن ٥ جنيهات

طابع بمطابع أخبار اليوم